

العلماء بين الحرب والسياسة
في العصر الأيوبي
(أسيرة شيخ الشيخ)

الكتبة الخيرية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٧٨

سجده الباحث عماد أمير
ونسقه وفهرسه
جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

مطبعة دار نشر الثقافة
٢١ شارع كامل صدقي بالقاهرة
ت : ٩١٦٠٧٦

العلماء بين الحرب والسياسة
في العصر الأنطوني
(أسيرة شيخ الشيخ)

الكتبة الخيرية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١٩٧٨

دار الثقافة للطباعة والنشر
بالقاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لعب العلماء دوراً بارزاً في تاريخ العالم الاسلامي في العصور الوسطى ،
سواء من النواحي العلمية والدينية أو من النواحي الحربية والسياسية . وقد ظفرت
النواحي العلمية والدينية بقسط وافر من الدراسة ، في حين مازال الدور الذي
لعبه العلماء في مضمار الحرب والسياسة يفتقر إلى مزيد من الدراسة والبحث .

ويعتبر العصر الايوبي من العصور التي كانت الحرب والسياسة من أبرز
مطاميرها . فالعروف أن الحروب الصليبية أشدت أوارها إبان العصر الايوبي ، وقام
السلطان الايوبيون بدورهم كاملاً في تحمل أعباء القتال ضد الصليبيين وإقامة
جبهة إسلامية موحدة . كذلك لم يتأخر العلماء عن المشاركة في تلك المعارك سواء
يعلمهم أو بأرواحهم .

ومن بين أولئك العلماء تبرز أسرة شيخ الشيوخ التي تقلد أفرادها عدة
وظائف دينية وعلمية في مصر والشام خلال العصر الايوبي ، واعتمد عليهم
السلطان الايوبيون اعتماداً كبيراً في مختلف ميادين الحرب والسياسة .

وفي هذه الدراسة الموجزة تناولت بالشرح دور أفراد أسرة شيخ الشيوخ
في مضمار الحرب والسياسة طيلة العصر الأيوبي ، ومشاركتهم الفعالة في ميادين
القتال وفي مختلف الدوائر السياسية والدبلوماسية .

وبعد ، فاني أرجو أن يجد القارئ الكريم في هذه الدراسة المتواضعة متعة
وفائدة ، ولعلني وفقت في سد حاجة المكتبة العربية إلى مثل هذه الدراسة .

والله ولي التوفيق ٤

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٤

حامد زيان غانم زيان

القاهرة في
رجب ١٣٩٨
يونيه ١٩٧٨

سجبه الباحث عماد أمير
ونسقه وفهرسه

جروب معين التاريخ للأهل التاريخ

أصل أسرة شيخ الشيوخ

يشير المقرئى^(١) إلى أن أصلهم الذى ينتسبون إليه حمويه الجوينى^(٢) بن على، ويقال انه من ولد رزم بن يونان أحد قواد كسرى أنو شروان، وتولى قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان ودبر دولته، ومعنى هذا أن أصل هذه الأسرة فارسى^(٣) وحمويه هذا كان جد كل من محمد وأبى سعيد اللذين كانا من امراء وقادة خراسان لكنهما تركا الدنيا وأقبلا على طريق الآخرة، ولم يلبث محمد أن وصل إلى أعلى درجات الزهد والتصوف، ومن أحفاده عماد الدين عمر بن على بن محمد بن حمويه الذى قدم دمشق زمن الملك المعادل نور الدين محمود (٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٣) (٤).

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٢ ص ٣٢.
(٢) نسبة إلى جوين، وهى كوره جليله نزهه على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور، وبينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ. انظر: ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ١٩٢.

(٣) Gottshalk. Awlad el shaykh, P. 765
(٤) ومن الجدير بالذكر انه اشتهر عدد كبير من أسرة حمويه بالعلم والصلاح بخراسان أمثال سعد الدين محمد بن المؤيد بن عبد الله بن على بن حمويه الذى كان صاحب أحوال ورياضيات وله أصحاب ومريدون (توفى عام ٥٦٠ هـ / ١٢٥٢ م) وكذلك كان ابنه صدر الدين أبو المجمع الصوفى الزاهد (توفى عام ٥٧٢ هـ / ١٢٢٣ م) انظر: أبو المحاسن: المنهل الصافى المستوفى بعد الوافى، ج ١ ص ١٤١ وحاشيته رقم ٤، Gottshalk : Awlad el shaykh, p. 765.

والمعروف أن الملك المسادل نور الدين محمود كان يكرم العلماء والفقهاء
 ويمظفهم^(١) ، فكان يجمعهم عنده للبحث والنظر ويستقدمهم إليه من شتى البلاد^(٢).
 وكان مع عظمته إذا دخل إليه الفقيه أو الصوفي يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه
 إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه^(٣) ومن بين أولئك العلماء كان الفقيه الزاهد
 عماد الدين عمر بن علي بن حمويه الذي رحب به نور الدين محمود .
 ولم يلبث أن أنس نور الدين محمود من عماد الدين عمر بن حمويه علماً وزهداً
 فعهد إليه بولاية خوانق^(٤) دمشق ، وقربه إليه ، وكان يحترمه ويحبه^(٥) .

(١) النعمي : المدارس في تاريخ المدارس ، ١٣ ص ٦٠٧ - ٦٠٨ ،

ابن خلدون : العبر وديوان المتبدأ والخبر ، ٥ ص ٢٤٣

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ١ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٣) حامد زيان : حلب في العصر الزنكي ، ص ٢١١ .

(٤) خوانق جمع خانقاه ، وهي كلمة فارسية معناها بيت ، وقيل أصلها
 خونقاه وهو الموضع الذي يأكل فيه الملك . والخوانق احدثت في ديار الاسلام
 في حدود الأريمنات هجرية ، وجمعت لتختل الصوفية فيها لعبادة الله تعالى .

انظر : المقرئ : الخطط ، ٣ ص ٢٧١ ،

سبط بن العجمي : كنوز الذهب في تاريخ حلب ، ورقة ١٣٦ (مخطوط) .

(٥) ابو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ ،

النعمي : المدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ص ١٥٤ .

وبتولية عماد الدين عمر مشيخة و خانقاه ، دمشق ، اطلق عليه لقب شيخ
الشيوخ ، (١) ، وهو اللقب الذي عرف به شيخ الخانقاه . (٢) .

واستمر عماد الدين عمر بلى مشيخة دمشق حتى وفاته عام ٥٧٧هـ (١١٨١م) (٣)
فعمد السلطان صلاح الدين الايوبي (٥٦٤ - ٥٨٩ / ١١٠٨ - ١١٩٣م) الذي
كان في تلك الفترة مقبلاً بدمشق يكافح من أجل توحيد الجبهة الاسلامية بعد وفاة
نور الدين محمود - إلى صدر الدين محمد بن عماد الدين عمر بن حموية بولاية مشيخة
دمشق ، ومن ثم صار صدر الدين بن حموية شيخ شيوخ دمشق . (٤)

(١) ابن ابيك : الدر المطلب في أخبار ملوك بني أيوب ، ص ٦٨ - ٦٩ .
هذا اللقب كان بالغ الشرف عند المسلمين ، ويبدو أن المؤرخين الصليبيين أدركوا
هذا تماماً فذكروا ذلك في كتاباتهم .
(٢) شيخ الخانقاه لقب ووظيفته ، وهي من الوظائف الدينية ، واحدى
اصناف وظائف ارباب الافلام ، بمعنى أن صاحبها كان لابد أن يتمتع بقسط وافر
من العلم .

انظر : القلة شندی : صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ص ٩٠ - ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٣) أبو شامة : ذيل الرضتين ، ص ١٢٥ ،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ص ٦٥ - ٩٠ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٣٠ - ٢٥٧ ،

النعماني : الدارس في تاريخ المدارس ، ص ٢٠ - ١٥٤ ،

المقريزي : الخطط ، ص ٢٠ - ٢٢ .

وقد سبق لصلاح الدين الأيوبي التعرف على الشيخ صدر الدين بن حمويه هذا من قبل ، وذلك عام ٥٧٦هـ (١١٨٠م) عندما أرسله الخليفة العباسي أبو العباس أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٥٦٢٢هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥م) برسالة إلى صلاح الدين وهو بمصر . ويبدو أن صلاح الدين قد أنس من صدر الدين علما وحسكة سياسية في هذه المقابلة ، بما دفعه إلى إقراره في مشيخة دمشق عقب وفاة والده عماد الدين عمر كما سبق أن أشرنا (١) .

وأجمعت المصادر التاريخية على مدح صدر الدين بن حمويه هذا ، ووصفته بأنه كان فاضلا فقيها لا يتكلم إلا فيما يعنيه ، له الحرمة الوافرة ، (٢) ، نال قسطا كبيرا من العلم والمعرفة بخراسان (٣) ، كبير القدر (٤) ، جليلا موقرا (٥) .

ولم يلبث أن وصل صدر الدين محمد بن حمويه إلى درجة كبيرة من العلم والمعرفة أهله لأن يخلف الشيخ قطب الدين النيسابوري (٦) في التدريس بالزاوية

(١) ابن ابيك : الدر المطلوب ، ص ٦٨ - ٦٩ ،

Gottshalk : Awlad el shaykh, P. 766

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ ،

أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ص ٣٠٧ ،

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ .

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ ،

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٢٥٧ .

(٦) هو أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الفقيه الشافعي

الملقب قطب الدين ولد عام ٥٠٥هـ / ١١١١م بنيسابور وتفقه بها وبمرو ، ثم

الغريه بجامع دمشق في رمضان عام ٥٧٨ هـ / يناير ١١٨٣ م (١) .
وقد تزوج صدر الدين محمد بن حمويه بإمرأتين ، الأولى كانت ابنة الشيخ
قطب الدين النيسابوري العالم المشهور سابق الذكر ، وأنجب منها ولده شمس الدين
الذي توفي في حياته . أما الزوجه الثانية ، فقد تزوجها بعد وفاة والده عام ٥٧٧ هـ ،
وهي ابنة القاضي المشهور شهاب الدين بن أبي عمرو ، وأنجب منها أولاده
الأربعة المشهورين وهم : عماد الدين عمر ، كمال الدين أحمد ، معين الدين حسن
وفخر الدين يوسف . (٢)

ولم يلبث السلطان صلاح الدين الأيوبي أن نقل نشاط الشيخ صدر الدين بن
حمويه من بلاد الشام إلى الديار المصرية ، وذلك عندما عهد إليه بمشيخة سعيد
السعداء ، ومشيخة سعيد السعداء هذه هي أول خانقاه تقام بالديار المصرية (٣) ،

تولى التدريس بالمدرسة النظامية بنيسابور ، وقدم بغداد ووعظ وتكلم بها ، ثم
قدم دمشق ودرس بالمدرسة المجاهديه بالزاوية الغريه من جامع دمشق ، كما تولى
التدريس بمدارس حلب الشهباء ، ثم مضى إلى همدان وقام بالتدريس بها كذلك ،
ثم عاد إلى دمشق واستقر بالزاوية الغريه بجامع دمشق ، حتى وفاته في شهر
رمضان عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م ، وله مؤلفات فقهيه عديدة .

أنظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(١) أبو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٣ ص ٢٥٧ .

المقريزي : الخطط ، ج ٢ ص ٣٢ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٨ .

وكانت في الأصل داراً لسعيد السعداء قنبر عتيق الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ،
ثم وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي داراً للصوفية عام ٥٦٩هـ (١١٧٣م) ، (١)
وعهد بمشيتها إلى جماعة من أكابر الشيوخ .

وكان من الضروري أن يتمتع شيخ الخانقاه بقسط وافر من العلم والمعرفة
بالإضافة إلى زهده ونسكه وعبادته (٢) ، ولم يجد صلاح الدين الأيوبي رجلاً

(٢) يطلق على هذه الخانقاه اسم الخانقاه الصلاحية أو دار سعيد السعداء ،
وهي بخط رحبة باب الميد من القاهرة . وقد وقفها السلطان صلاح الدين
للفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، ورتب لهم في كل يوم طعاماً ولحماً
وخبزاً، وبنى لهم حماماً بموارم . وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح
وترجي بركتهم . وكان لأهل خانقاه سعيد السعداء هيئة فاضلة يوم الجمعة ،
ذلك أنه يخرج شيخ الخانقاه منها وبين يديه خدام الربعة الشريفه ، والصوفية
مشاة ، إلى باب الجامع الحاكي ، فيدخلون إلى مقصوره تعرف بمقصورة البسملة
حيث يقرأون القرآن ثم يؤدون الصلاة ، ثم يعودون إلى الخانقاه بنفس هيتهم
أثناء الذهاب وكان أهالي مصر يأتون إلى القاهرة ليشاهدوا صوفية خانقاه سعيد
السعداء عندما يتوجهون منها إلى صلاة الجمعة ، كي تحصل لهم البركة والخير
بمشاهدتهم .

انظر : المقرئى : الخطط ، ٢ - ص ٤١٤ - ٤١٥

(٢) يشير الفلقشندي إلى أن شيخ الخانقاه كان دائماً يوصفه بالورع =

يجمع كل هذه الصفات سوى الشيخ صدر الدين بن حمويه ، لذلك قلناه مشيخة دار
سعيد السعداء ، ومن ثم صارت مشيخة هذه الخانقاه حكراً على صدر الدين بن
حمويه وأولاده من بعده (١) .

وعلى هذا النحو ازدادت الصلات بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وبين
الشيخ صدر الدين بن حمويه . ويبدو أن صلاح الدين قد أعجب كثيراً بعلم صدر
الدين بن حمويه ، وهو الأمر الذي دفعه إلى أن يهد إليه كذلك بأمر المدرسه
الصلاحية - التي تقع بجوار الإمام الشافعي - عا ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) (٢)
وهذه المدرسه بناها السلطان صلاح الدين الأيوبي علم ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م)
جريا وراء سياسة انشاء المدارس الخاصه بتدريس المذهب السني على مذاهبه
الأربعة ، وذلك للقضاء على المذهب الشيعي (٣) ، وعهد صلاح الدين بالتدريس
في هذه المدرسه إلى الشيخ أبي البركات محمد بن سعيد بن علي الخبوشاني (٤) ، ورتب

== والزهد والنسك وقطع العلائق من الدنيا وتربية المريدين وتسليةكم والوقوف
على طريق السلف الصالح ، .

صبح الأعشى ، ج ١١ ص ٩٠ .

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢) السيوطي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٣) عن هذه السياسة والاجراءات التي اتبعت لتطبيقها أنظر :

حامد زيان : بعض مظاهر الحياه الإجتماعيه بمصر زمن صلاح الدين

الايوبي ، ص ٦٥ - ٧٥ .

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٤١٤ - ٤١٥ =

له المعلوم اللازم من مال وجرايه (١) . وبلغت هذه المدرسة شأوا عظيما لدرجة
أن السيوطي وصفها بأنها «تاج المدارس» (٢) . واستمر الخبوشاني يقوم بالتدريس
في هذه المدرسة حتى وفاته عام ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) فعمد صلاح الدين بالتدريس بها
إلى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه كما سبق أن أشرنا .

ولم يتغير وضع صدر الدين بن حمويه بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي
(عام ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م) وإنما إزداد إحتراما ، فيشير أبو شامة إلى أنه - أي صدر
الدين - « كانت له الحرمه الوافره عند العادل بن أيوب وأولاده » (٣) . وأقره
العادل (٥٩٦ - ٦١٥ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٨ م) بمشيخة سعيد السمدا . كما كان
الحال زمن صلاح الدين الأيوبي ، بالإضافة إلى قيامه بالتدريس بالمدرسة الصلاحية
نوفى نفس الوقت عهد إليه بالتدريس بالمشهد الحسيني (٤) .

• • •

= الخبوشاني ، هو ذلك العالم الزاهد الذي أسقط من على منابر مصر في
أول جمعه من شهر المحرم عام ٥٦٧ هـ الخليفة الفاطمية ، ودعى للخليفة العباسي
بالديار المصرية .

(١) عن مقدار هذا المعلوم والجرايه انظر :

السيوطي : حسن المحاضر ، ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضر ، ج ٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٣) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ .

(٤) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ ، =

ولم تقتصر المهام التي أداها صدر الدين بن حمويه على التدريس بالمدارس الشافعية بالديار المصرية أو الاشراف على خانقاه سعيد السعداء أو شغل بعض الوظائف الدينية الأخرى^(١) ، وإنما تعدى هذا إلى شغل عدة وظائف سياسية . ومن بين تلك المهام السياسية التي تولاها صدر الدين بن حمويه ما حدث عام ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) عندما أرسله العادل الأيوبي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله^(٢) وأغلب الظن أن العادل أوصاه بحمل أنباء وصول الحملة الصليبية الخامسة إلى عسكا^(٣) ، إلى مسامع الخليفة العباسي ، وحث الخليفة على استشاره همة المسلمين

== الصفدي . الوافي بالوفيات ، ج ٤ ص ٢٥٩ ،

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ١٥٠ - ١٥١ .

والمشهد الحسيني هو ذلك المكان الذي دُفن فيه رأس الحسين - رضي الله عنه - بعد إحضارها من عسقلان ، وذلك في خلافة الخليفة الفاطمي بالله الفاطمي عام ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، وبعد أن استولى صلاح الدين الأيوبي على الديار المصرية أعاد بها المذهب السني ، وجعل بالمشهد الحسيني حلقة تدريس وفقهاء ، وأنشأ بجواره مدرسة سميت بالمشهد .

انظر : المقرئزي : الخطط ، ج ١ ص ٤٢٧ .

(١) تولى صدر الدين القضاء بالديار المصرية عام ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م

انظر : النابلسي : لمع القوائين المضية ص ٧٢ .

(٢) ابن أبيك : الدر المطلب ، ص ١٩٣ .

(٣) وصلت إلى عسكا عام ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) جموع الصليبيين ، تلبية ==

للدعوة التي وجهها البابا أنوسنت الثالث ، وتمهدا البابا هونوريوس الثالث من

بعده للقيام بحملة صليبية على دلتا مصر . وبعد أن تجمعت الحشود الصليبية بعسكا ==

للنهوض من أجل الجهاد ضد الصليبيين (١).

ومن المهام السياسية الأخرى التي قام بها شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، تلك الرسالة الخطيرة التي حملها من الملك الكامل محمد نائب السلطنة بالديار المصرية إلى والده السلطان المعادل الأيوبي، أثناء مقام الأخير بالعقين عام ٦١٥هـ (١٢١٨م) والتي تفيد استيلاء الصليبيين - الحملة الصليبية الخامسة - على برج السلسلة (٢).

= قادمًا حنادى برين (١٢١٠ - ١٢٢٥ م) ملك الصليبيين في عكا إلى شمال الدلتا، حيث رست السفن الصليبية يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الأول عام ٦١٥هـ (١٢١٨م) أمام دمياط وعن هذه الحملة انظر:

ابن أبي الهيثم: تاريخه، ورقة ١٩١ (مخطوط)،

ابن واصل: مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٥٨،

الحوى: التاريخ المنصوري، ص ١٣٤،

Grousset: Hist des Croisades, T. 3, pp. 191-231.

Tout: The Empire and the papcy, Vol. 2, pp. 451-452.

(١) عن أحداث عام ٦١٤هـ انظر:

ابن واصل: مفرج الكروب ج ٣ ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

(٢) استولى الصليبيون على برج السلسلة بعد ثلاثة أشهر من تاريخ نزولهم

على دمياط.

انظر: ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤ ص ١٥،

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ق ١ ص ١٩٠.

الذي يعتبر على حد تعبير مؤرخي العصور الوسطى « قفل الديار المصرية » (١) .
وهذه السفاره الاخيرة توضح مدى ما وصل إليه صدر الدين بن حمويه من مكانه
كبيرة وثقه عالية عند حكام مصر ، فمثل هذه الاخبار العسكرية لا يمكن أن يعهد
أولو الامر بها إلا لمن يكون محل ثقتهم وفادراً على حفظ هذه الأمانة .

ومن المهام السياسية التي أداها شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه ، تلك
السفاره التي قام بها عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) والتي أوفده فيها السلطان الكامل
بمحمد (٦١٥ - ٦٢٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧ م) سلطان الديار المصرية ، إلى
دار الخلافة العباسية ببغداد ، مستنجداً بالخليفة العباسي وأمراء المسلمين للوقوف
جميعاً يداً واحده ضد الصليبيين الذين استولوا على دمياط (٢) .

وبعد أن انتهى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه من إبلاغ الخليفة العباسي
بأنباء سقوط دمياط في يد الصليبيين ، غادر بغداد ليطوف بعدد من البلاد الإسلامية
الشرقية ، في جولة دبلوماسية ، بقصد حث مختلف الأمراء المسلمين على التكاتف
والوقوف صفاً واحداً تجاه الحملة الصليبية الخامسة (٣) ، غير أن يد القدر لم تمهل

(١) ابن ابيك : الدر المطلوب ، ص ١٩٦ ،

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٧٠ :

ومن الجدير بالذكر ان السلطان المعادل كان مريضاً في تلك الفترة ، وزاد همه

وقلقه استيلاء الصليبيين على برج السلسلة ، فدق على قلبه ، وتوفي بعد قليل

(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٢٥ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٣) ابو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٢٧ .

صدر الدين بن حموية طويلا فتوى في ٢٤ جمادى الآخرة من نفس الصام
(١١٧ هـ / ١٢٢٠ م) بالموصل (١) أثناء تلك الجولة (٢) ، بعد أن بلغ من العمر
ثلاثة وسبعين عاما (٣) .

(١) كان حاكم الموصل في تلك الفترة هو بدر الدين لؤلؤ

(٢) دفن الشيخ صدر الدين بن حموية بالموصل .

ابن ابيك : الدر المطلب ص ٢٠٨ .

(٣) ابو شامه : ذيل الروضتين ، ص ١٢٥ ،

المقريزي : الخطط ، ج ٢ ص ٣٢ ،

السيوطي : حسن المحاضرة ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ

لعب القدر دوراً كبيراً فيما وصل إليه أولاد شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه من مكانة كبيرة في الدولة الأيوبية . فقد حدث أن أرضعت أمهم - إننة القاضي شهاب الدين بن أبي عمرو - الملك الكامل محمد بن العادل الأيوبي ، فصار الكامل محمد أخاً في الرضاعة لأولاد صدر الدين بن حمويه شيخ الشيوخ^(١) ولم ينس الملك الكامل هذه الصلة لأولاد شيخ الشيوخ ، لذلك عندما انفرد بحكم الديار المصرية بعد وفاة والده الملك العادل عام ٥٦١هـ (١٢١٨م) رقى أولاد صدر الدين شيخ الشيوخ بن حمويه الأربعة ، وهم عماد الدين عمر وكمال الدين أحمد ومعين الدين حسن وفخر الدين يوسف^(٢) .

وقد لعب هؤلاء الأبناء الأربعة دوراً كبيراً في تاريخ الدولة الأيوبية منذ زمن الكامل محمد وحتى نهاية الدولة الأيوبية ، فبالإضافة إلى ما أدوه من جهد واضح في النشاط الديني والعلمي كان لهم دوراً بارزاً في مضمار الحرب والسياسة بالدولة الأيوبية .

أما عماد الدين عمر ، فكان أكبر أخوته ولد عام ٥٥٨١هـ (١١٨٥م)^(٣) .

-
- (١) ابن واصل : منبرج الكروب ، ص ٥٠ - ١٧٠ .
 - (٢) المقرئزي : السلوك ، ص ٣٢ - ٣٣ .
 - (٣) العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ص ١٨١ .

ونال قسطاً وافراً من العلم، أهله للقيام بالتدريس مكان والده في المدرسة الصلاحية
بجوار الشافعي وبالمشهد الحسيني وبمشيخة الشيوخ بالديار المصرية (١). وما يذكر
أن عماد الدين عمر كان ملازماً للملك الكامل يجالسه ويتحدث معه في مختلف
أمور العلم (٢) ويبدو أن الذي ساعد على ذلك محبة الملك الكامل نفسه للعلم
والعلماء فكان يجالسهم ويشاركهم المناقشات العلمية والفقهية (٣). ومن طريف
ما يذكر أن الناصر داود بن المعظم عيسى شقيق الملك الكامل كان يحضر بعض
هذه المجالس العلمية، وكان يخطبه عماد الدين عمر في مختلف المناقشات العلمية (٤)،
مما أفرغ صدر الناصر داود على عماد الدين عمر وأدى إلى وجود الكراهية والعداء
بين الرجلين.

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٤٤.

العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٥ ص ١٨١.

(٢) ونتيجة لأصوات الطلبة بين الملك الكامل محمد وعماد الدين عمر فضل
الكامل أن يقوم عماد الدين عمر بمقعد قران الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي
ابن صلاح الدين صاحب حلب على الخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل عام ٥٦٢٦م
١٢٢٨ م.

انظر: المقرئزي: السلوك ج ١ ص ٢٣٤.

(٣) أبو الفدا: المختصر، ج ٣ ص ١٦١.

ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٤٤.

(٤) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج ٨ ص ٧٠٧.

وعلى هذا النحو وصل عماد الدين عمر إلى مكانة بارزة في مختلف أمور العلم والفقہ ، لدرجة أن قال عنه القاضي والمؤرخ المعاصر جمال الدين بن واصل : « كان رحمه الله — أى عماد الدين عمر — تام العقل والفضل والكرم والبأس والرئاسة ، وكان مقصداً لمن يفد إليه ، . . . وكان معدوم المثل في وقته (١) ، . . . وخير دليل على المكانة العالية التي وصل إليها عماد الدين عمر هو أن الملك الكامل جمع له بين رئاسة العلم والقلم عام ٥٦٣٢ (١٢٣٥ م) (٢) .

وإذا كان عماد الدين عمر قد وصل إلى مكانة كريمة في العلم والدراسة ، فإنه كان في نفس الوقت فارساً ماهراً ، تعلم فنون الفروسية والقتال ، فحاز على حد تعبير أبو الفدا (٣) على « فضيلتي السيف والقلم » ، فكان يباشر التدريس ويتقدم الجيوش .

كذلك لم يكن عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ بعيداً عن شؤون السياسة والحكم ، فكثيراً ما استعان به الملك الكامل في حمل رسائله إلى مختلف حكام البلدان المجاورة ، مما يدل على الثقة التامة التي وضعها فيه الملك الكامل . من ذلك ما حدث عام ١٢٣٣ / ٥ / ١٢٣٥ م عندما أرسله الكامل مبعوثاً من قبلة إلى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور المستنصر بالله (٦٢٣ — ٤٠٠ — ١٢٢٦ / ٥ — ١٢٤٢ م) (٤) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٢٠٢ .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٢ — ٣٣ .

(٣) المختصر ، ٣٨ ص ١٦١ .

(٤) المقرئى : الخطط ، ٢٨ ص ٣٢ — ٣٣ .

أما الدور السياسي الخطير الذي لعبه عماد الدين عمر فكان عقب وفاة الملك الكامل محمد عام ٥٦٣٥ (١٢٣٧م) خاصة في مشاركته في تقرير مصير الممالك الأيوبية ببلاد الشام والديار المصرية .

فيشير المؤرخون إلى أنه بعد وفاة السلطان الكامل محمد الأيوبي اجتمع الأمراء وهم الأمير سيف الدين علي بن قليج والأمير عز الدين أيك ، والأمير ركن الدين المهجاي ، والأمير فخر الدين بن الشيخ (١) ، وأخوه الأمير عماد الدين عمر ، وأرباب الدولة بدمشق (٢) ، واتفقوا على تحليف الجند للملك العادل أبي بكر بن الملك الكامل ليخلف أباه بقلعة الجبل وفي حكم الديار المصرية ، وأن يكون الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل الأيوبي نائباً عنه بدمشق (٣) . غير أن الناصر داود بن المعظم عيسى كان يطمع في أن يتولى حكم دمشق بدلاً من الجواد (٤) . وهنا لعب عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ دوراً هاماً في إقرار الجواد على حكم دمشق ، وإبعاد الناصر داود عنها ، وذلك لما كان بين كل من

(١) هو الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين وسبأتي شرح دوره فيما بعد .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ١٧١ .

(٣) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٦١ ،

أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٠٣ ، ٣٠٥ ،

الزبيدي : ترويح القلوب في ذكر الملوك بنى أيوب ، ص ٧٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ١٧٣ .

عماد الدين عمر والناصر داود من عداة وكرامية (١) ، ويبدو أن كلنة عماد الدين عمر كانت نافذة على مختلف الأمراء ، مما جعلهم ينصاعون إلى أمره ، وانفقوا على إستبعاد الناصر داود عن نيابة دمشق ، وإقرارها للملك الجواد ، (٢) وإخراج الناصر داود من دمشق وإبعاده إلى الكرك حتى لا يسبب أية متاعب للملك الجواد كما مكث عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ بعض الوقت بدمشق ومعها قوة كبيرة من الجنود لحفظ الأمور بها ، وفي نفس الوقت بذل الملك الجواد الأموال للجنود والأمراء بدمشق لاجتذاب قلوبهم إليه (٣) .

وإذا كان عماد الدين عمر قد بذل كل هذا الجهد من أجل استقرار الأمور للملك الجواد بدمشق بحيث يكون قائما عن الملك العادل الصغير ، فإن الأمور لم تلبث أن اضطربت بمصر وبلاد الشام بسبب توالي الناصر داود وحققه على كل من عماد الدين عمر والملك العادل الصغير سلطان الديار المصرية (٦٣٥ - ٥٦٣٧ / ١٢٣٧ - ١٢٣٩ م) .

ذلك أن الناصر داود بعد أن فشل في الوصول إلى حكم دمشق كما سبق أن أشرنا - فكر في حكم الديار المصرية نفسها ، وقد انتمز الناصر داود فرصة

(١) انظر ما سبق ص ٢٢ .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٠٧ ،

ابن ابيك : الدر المطلوب ، ص ٣٢٨ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ،

العماد الخليلي . شذرات الذهب ، ج ٥ ص ١٨٠ .

(٣) المقرئ : السلوك ، ج ١ ص ٢٦١ .

اضطراب الأمور بمصر وخروج بعض الأمراء عن طاعة العادل الصغير بسبب تقريبه الشباب ومنحهم الأموال والاقطاعات والاختصاصات وأرأى أنهم واستبعاد الأمراء الكبار ، كذلك لكثرة تحجبه من الناس واشتغاله باللهم دون النظر في مصالح الدولة . فانتهمز الناصر داود هذه الفرصة وعزم على المسير إلى مصر ووطد العزم على أخذها عن طريق الحيلة . وبالفعل غادر الناصر داود الكرك متجهاً صوب مصر وحمل معه مجموعة كبيرة من التحف والهدايا والجواري لإجتذاب العادل الصغير إليه ، وعندما وصل إلى الديار المصرية أظهر للعادل الإخلاص وصار لا يفارقه ، ثم أخذ في استمالة أمراء الديار المصرية إلى جانبه . وحتى يكتمل مخططه كان لابد من التخلص من عدوه الأول عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ الذي كان مقياً بدمشق حينئذ (١) ، والذي كان نافذ الكلمة في السلطنة الأيوبية . لذلك أوهم - أي الناصر داود - الملك العادل الصغير بأن الملك الجواد نائب دمشق قد استفحل أمره وأنه يطمع في الإيقضاض على السلطنة والإطاحه بحكم العادل ، وهمس إليه بأن الذي شجع الجواد على ذلك هو الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ الذي كان السبب في تولية الجواد حكم دمشق (٢) .

ويبدو أن العادل الصغير كان مستعداً لتصديق مثل هذه الاتهامات ، خاصة بعد أن علا شأن الجواد واستولى على زمام الأمور ببلاد الشام واستمال معظم الأمراء إليه ، وأنزل الهزيمة بجيش الناصر داود ، مما دفع العادل الصغير إلى الخوف

(١) ابن واصل مفرج الكروب - ص ١٧٣

(٢) أبو الفدا : المختصر ، ص ٣٠٣ ، ١٦٣ ،

المقرئزي : السلوك - ق ٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

فعلا من نوايا الملك الجواد ، (١) كما بدأ يرتاب في نوايا الأمير عماد الدين عمر .
وعلى هذا النحو نجح الناصر داود في الايقاع بين الملك العادل الصغير وبين
عماد الدين عمر الذي كان حينئذ مقيما بدمشق .

وعندما وصلت هذه الاخبار السيئة إلى مسامع عماد الدين عمر أثناء إقامته
بدمشق ، خشي من اتساع الفجوة بينه وبين العادل الصغير ، فأثر الحضور إلى مصر
وإجتمع بالملك العادل ، وحتى يزيل عنه كل الشكوك ، التزم له - أي للعادل -
بإحضار الملك الجواد إلى طاعته بمصر . ويشير المؤرخ ابن واصل (٢) وكان معاصراً
للك الأحداث إلى أن الملك العادل الصغير ، بعد أن تحقق من إستقلال ابن عمه
الملك الجواد بحكم دمشق وعصيانه عليه ، أحضر أولاده شيخ الشيوخ الأربعة وهم
فخر الدين ، وعماد الدين ، ومعين الدين ، وكال الدين وقال لهم : أنتم ضيعتم على
ملك دمشق ، فإن أبي الملك الكامل فتحها وتوفي وهو ما لكها فسلمتم دمشق وخزائن
أبي إلى الملك الجواد ، فتغلب على دمشق وضيع الخزائن ، وما أعرف عود دمشق إلى
ولانتزاعها من يد الملك الجواد إلا منكم . فتعهد عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ
بإرجاعها للملك العادل . ولم يلبث عماد الدين عمر أن تجهز للسفر إلى دمشق
لإنتزاعها من يد الملك الجواد (٣) .

غير أن المهمة السياسية التي تعهد بإنجازها عماد الدين عمر لم تكن بالأمر

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ح ٥ ص ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) المصدر السابق ، ح ٥ ص ١٩٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ح ٥ ص ١٩٩ ،

Gutschalk : Awlad el shaykh, p. 766.

السهل ، فلم يسكن من اليسير على الجواد أن يترك دمشق بهذا السهولة ويحضر إلى مصر ليقع أسيراً في قبضة ابن عمه العادل الصغير ، لذلك رفض رفضاً قاطعاً ما عرضه عليه عماد الدين عمر من الذهاب إلى مصر والمشول بين يدي العادل الصغير، وهنا أعلن عماد الدين عمر عزل الجواد عن نيابة دمشق (١)

ولما لم يسكن لدى الجواد القوة الكافية للدخول في صراع ضد العادل الصغير وحماد الدين عمر ، وهو في نفس الوقت لا يريد أن يفقد ما وصل إليه من ملك وما أحرزه من جاه ، لذلك آثر أن يعقد إتفاقاً مع الشقيق الأكبر للعادل الصغير وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي كان يحقد على أخيه الصغير لتولية دونه حكم مصر ، وتم الإتفاق بين الجواد والملك الصالح نجم الدين على أن يتنازل الأول للثاني عن دمشق على أن يأخذ الجواد عوضاً عنها سنجار (٢) والرقه (٣) وعانه (٤) .

(١) أبو الفدا : المختصر ، ص ٣٠ ص ١٦٣ ،

المقريزي : السلوك ، ص ١٠٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) سنجار مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة .

ياقوت معجم البلدان ص ٣٠ ص ٢٦٢

(٣) الرقه مدينة مشهورة على الفرات .

ياقوت ، معجم البلدان ص ٣٠ ص ٥٩

(٤) عانه بلد مشهور بين الرقه وهيث يعد في أعمال الجزيرة

ياقوت : معجم البلدان ص ٤٤ ص ٧٢

ويبدو أن الجواد خشي من وجود عماد الدين عمر بدمشق وتدخله لإفساد
الإتفاق المبرم بينه وبين الملك الصالح نجم الدين أيوب (١) لذلك فكر في التخلص
منه ، ورب جماعة من الإسماعيلية للفتك به ، وبالفعل في السادس والعشرين من
جمادى الأولى عام ٥٦٣٦ / ١٢٣٨ م تم اغتيال عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ
صدر الدين بن حموية ، وأشيع أن الإسماعيلية أخطأوا في قتله وإنما كانوا يريدون
قتل الملك الجواد نفسه فإنه كان كثير الشبه به (٢) .

ويشير سبط بن الجوزي (٣) - وهو مؤرخ معاصر لهذه الأحداث وشاهد
عيانها - أن الجواد بعد أن قتل عماد الدين عمر أخذ أمواله وخيوله وماليكه ،
فامتنع مالك عماد الدين عمر عن خدمة الجواد ، وقالوا : أنت تدعى أنك ما
قتلته ، وهو له أخوه وورثه فبأى طريق تأخذ ماله ؟ فسجنهم الجواد .

وفي اليوم التالي لمقتل عماد الدين عمر - ٢٧ جمادى الأولى عام ٥٦٣٦ -
أقيمت جنازة عظيمة له ، وصلى عليه بجامع دمشق ، وحضر جنازته المؤرخ المعاصر
أبو شامة (٤) ، وأشار ابن واصل (٥) إلى أنه حضر جنازته معظم الناس والفقهاء .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب - ص ٥٥ ص ٢٠٠

(٢) أبو الفدا : المختصر ، ص ٣٥ ص ١٦٣ ،

المفريزي : السلوك - ١ ق ٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، المخطوط ، ج ٢ ص ٢٢ - ٢٣ ،

العقاد الحمبلي : شذرات الذهب ، ج ٥ ص ١٨١

(٣) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٢١ - ٧٢٣

(٤) ذيل الروضتين ، ص ١٦٧ - ١٦٨

دفن عماد الدين عمر بجبل قابسون بدمشق

(٥) مفرج الكروب ، ص ٥٥ ص ٢٠٢

والصوفية وأهل الدين وغيرهم . ويقرر سبط بن الجوزي (١) أن عماد الدين عمر قتل مظلوماً .

وعلى هذا النحو انتهت حياة الشيخ العالم المحارب السياسي عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية .

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٢١ - ٧٢٣ .

كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ

تولى كمال الدين أحمد بن صدر الدين بن حمويه مشيخة الصوفية بالديار المصرية - سعيد السعداء - خلفاً لوالده الشيخ صدر الدين بن حمويه ، وكان عالماً ، تولى التدريس بالمدرسة الناصرية التي تقع بمسوار الجامع العتيق بمصر ، وكذلك التدريس بالشافعية بالقرافة ، وكانت له جهود كبيرة في الحياة العلمية والدينية في مصر في العصر الأيوبي (١) .

غير أن أهمية هذا الرجل العالم الصوفي تعود إلى اشتغاله بالحرب والسياسة إلى جانب نبوغه العلمي وزهده وورعه ، حيث قام كمال الدين أحمد هذا بخدمة كل من السلطان الكامل محمد ثم ابنه الصالح نجم الدين أيوب ، وقدم لهما كل ما يستطيع تقديمه من جهد في مجال الحرب والسياسة .

من ذلك إستماتة الملك الكامل به أثناء صراعه ضد أخوته وأبناء ههومتته ببلاد الشام ، عندما أرسله عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م رسولا من قبله إلى الملك المعظم عيسى ، بعد أن إحتدم النزاع بين المعظم عيسى من ناحية وأخيه الملك الكامل محمد من ناحية أخرى ، واستعان المعظم عيسى في هذا الصراع بقوة جلال الدين الخوارزمي ضد أخيه الكامل ، مما أفزع الكامل محمد . ويبدو أن الكامل محمد

(١) المقرئى : الخطط ، ٢٥ ص ٢٢ - ٢٣ .

كان يريد أن يثنى عزم المعظم عيسى عن التحالف مع الخوارزمية ، وبذل في سبيل ذلك عدة محاولات ، كان من بينها محاولات دبلوماسية قام بها سفراء الملك الكامل ومن بينهم كمال الدين أحمد بن شيخ الشيوخ . وقد كلف الكامل محمد السفير كمال الدين أحمد بأن يتوجه بعد ذلك إلى الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، الذي كان حليف الملك الكامل محمد في تلك الفترة ، ليخبره بنتائج سفارته إلى الملك المعظم عيسى^(١) . وإذا كانت المصادر قد صممت ولم تشر إلى محتويات الرسالة التي كان يحملها السفير كمال الدين أحمد أو طبيعة تلك السفارة ، فإنه يبدو أن المعظم عيسى قد أصم أذنيه عن سماع أي نداء لإعادة العلاقات الودية مع أخوته وأبناء عمومته ، وفضل السير في طريق عدائه لهم وصداقته وتحالفه مع جلال الدين الخوارزمي . ويدلنا على هذا ما اتخذته الكامل بعد ذلك من سبل « ليشغل سر أخيه المعظم ، خاصة عندما أرسل يستدعي الامبراطور فردريك الثاني امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ليتسلم بيت المقدس^(٢) » .

ولم تقتصر أهمية الشيخ كمال الدين أحمد عند حد إشتغاله سفيرا للملك الكامل محمد ، وإنما تقلد عدة وظائف سياسية ، منها توليه وظيفة نيابة حران والجزيرة

(١) المقربرى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٢٣ .

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٢٦ ،

العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٤ (مخطوط) ،

المقریزی : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٢٢ .

وأنظر بعده

في عام ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) (١) ، ويبدو أن الكامل محمد أختار الشيخ كمال الدين أحمد لهذا المنصب بالذات لأن هذه البلاد كانت تحت حكم الأشرف موسى وقد أخذها الكامل محمد منه بمقتضى اتفاقية تل العجول أوائل عام ٦٢٦ هـ (نوفمبر ١٢٢٨ م) (٢) ، وكان يتطلب حكمها رجلا صالحا قادرا على ضبط أمورها وجذب قلوب رعيتها إلى الملك الكامل ، ولم يكن لدى الملك الكامل أفضل من الشيخ كمال الدين أحمد شيخ الشيوخ ، لذلك لم يتردد في أن يهد بحكمها إليه .

ومن المهام السياسية التي تولاهما الشيخ كمال الدين أحمد أيضا زمن الكامل محمد منصب الوزارة بالديار المصرية ، وكان ذلك بعد عودته من حران بعد استتبت الأمور للكامل بها حيث عهد إليه الكامل في آخر عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٨ م بأمر الوزارة ، التي قام بها كمال الدين خير قيام (٣) .

(١) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٣٨ ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٢-٣٣

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٦٥٧ ،

أبن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٣١ .

(٣) أبن العميد : اخبار الأيوبيين ، ص ١٨٩

المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٣٩ .

ويبدو أن الصلة بين الكامل محمد والشيخ كمال الدين أحمد كانت قوية جداً لدرجة أن الكامل وكاله عنه عام ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) في عقد قران أخته « عاشوراء خاتون » على الملك الناصر داود . انظر : أبو المحاسن . النجوم ج ٥ ص ١٥ .

ومن الطريف أن الشيخ كمال الدين أحمد شيخ شيوخ الديار المصرية الرجل العالم الزاهد كان فارساً ماهراً ، تعلم فنون الفروسية والقتال وأجادها اجادة تامة ، لدرجة أنه حاز على حد تعبیر المؤرخ أبو الفدا « فضيلة السيف والقلم » (١) .

فقد اعتمد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ / ١٢٢٩ - ١٢٤٩ م) اعتماداً كبيراً على شيخ الشيوخ كمال الدين أحمد في كثير من معاركه الحربية ، (٢) ففي عام ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) خرج كل من الناصر داود صاحب الكرك والصالح اسماعيل صاحب دمشق والمنصور ابراهيم صاحب حمص عن طاعة الملك الصالح نجم الدين أيوب وعزموا على محاربتة ، فلم يكن من الملك الصالح إلا أن جهز جيشاً كبيراً عهد بقيادته الى الشيخ كمال الدين أحمد لتأديب الناصر داود ومن معه .

واتجه الشيخ كمال الدين بجيشه صوب بلاد الشام حيث تقابل مع جيش الناصر داود وحلفائه بجبل القدس ، غير أن الهزيمة كانت من نصيب الشيخ كمال الدين الذي وقع أسيراً في يد الناصر داود ، بيد أن الناصر داود لم يلبث أن أطلق سراحه بعد فترة وجيزة ، فعاد الشيخ كمال الدين أحمد الى القاهرة (٣) .

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٣٠١ ،

ابن ابيك : الدر المطلب ، ص ٢٤٧ ،

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٣٠٩ .

ومن الجدير بالذكر أن هزيمة الشيخ كال الدين وأسره عام ٦٣٨ هـ ، لا تعنى
نهاية لدوره الحربى فى الدولة الأيوبية ، وإنما أستمر بعد ذلك يودى دوره كاملا
فى مضمار الحرب والقتال ، من ذلك قيادته للجيش المصرى المقيم بغزه عامى ٦٣٩ ،
٦٤٠ هـ / ١٢٤١ ، ١٢٤٢ م للضرب على أيدي الخارجين عن طاعة الملك الصالح
ولصد أى هجوم يحاول أن يقوم به أمراء بلاد الشام الخارجين عن طاعة
الملك الصالح .

وأستمر للشيخ كال الدين أحمد مقبلا بغزه حتى وفاته فى الثالث عشر من شهر
صفر عام ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) على أثر تناوله طعام مسموم^(١) .

وعلى هذا النحو تنتهى حياة ثانى أولاد شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه
(الشيخ كال الدين أحمد) الذى جمع بين العلم والحرب والسياسة ، وأدى دورا
بارزا فى تاريخ الدولة الأيوبية .

(١) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٣٩ ،

ابوشامة : ذيل الروضتين ، ص ١٧٢ ،

المقريزى : الخطط ، ج ٢ ص ٢٣ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٤٥ ،

العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ج ٥ ص ٢٠٧ .

معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ

يعتبر الشيخ معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه مثلاً
ظاهراً لعالم فقيه متصوف جمع في يديه بين البراعة في العلم والآداب والمهارة في
مختلف فنون الحرب والقتال والخنكة السياسية والذكاء والديبلوماسية وبين الورع
والخشوع والإيمان .

وقد ساعدت كل هذه الصفات التي تمتع بها معين الدين حسن على أن يتقلد عدة
وظائف مختلفة دينية كانت أو عليه أو عسكريه أو سياسية .

وبحكم مولده تولى مشيخة الشيوخ بالديار المصرية (سعيد السعداء) التي
صارت حكراً على أولاد صدر الدين بن حمويه ، وفي نفس الوقت شغل عدة
وظائف عليه أخرى ، فقام بالتدريس مثله مثل بقية أخوته ، بالمشهد الحسيني ،
لكنه زاد عليهم أنه بنى بهذا المشهد إيواناً للتدريس (١) . وبالإضافة إلى كل ذلك
إستعان به الملك الكامل محمد ومن بعده الصالح أيوب ، في تصريف كثير من شؤون
الدولة السياسية والحربية (٢) .

ومن المهام السياسية التي أداها الشيخ معين الدين حسن ، ما حدث عام ٦٢٣ هـ

(١) المقرئى : الخطط ، ٢٣ ص ٢٣ ،

Gotstchalk : Awlad el shaykh, p 766

(٢) أبو المحاسن : النجوم ٦٣ ص ٥٥ حاشية رقم ١

(١٢٢٦م) عندما أرسله الملك الكامل محمد سيفراً من قبله إلى مقر الخلافة العباسية ببغداد ، ممزياً في وفاة الخليفة أبي نصر محمد الظاهر بأمر الله العباسي (٦٢٢ - ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ - ١٢٢٦م) ومهتماً بخلافة ابنه أبي جعفر المنصور المستنصر بالله (٦٢٢ - ٦٢٢ هـ / ١٢٢٦ - ١٢٢٦م) (١) ، حيث وقف بين يدي الوزير مؤيد الدين أبي الحسن محمد بن محمد القمي (٢) ، وألقى تلك الكلمة البليغة : « عيد الدولة المقدسة المستنصرية يقبل القباب ، التي يستشفى بتقريب ثراها ، ويستكنى بتمسكها من عبوديتها بأوثق عراها ، ويوالي شكر الله تعالى على إمامته ليل العزاء ، الذي عم مصابه بصبح النهار الذي تم نصابه ، حتى تزحزح عن شمس الهدى شفق الأشفاق فجعل كلمتها العليا ، وكلمة معادها السفلى ، وزادها شرفاً في الآخرة والأولى » (٣) ولم تقتصر المهام السياسية والدبلوماسية التي أداها الشيخ معين الدين زمن

(١) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) قمي الأصل والمولد ، وينتسب إلى بلدة قم وهي بين أصبهان وساره ، بغدادى المنشأ والوفاء ، يتصل بنسبه إلى المقداد بن الأسود الكندى ، كان بصيراً بأمور الملك ، خبيراً بأدوات الرياسة ، تولى الوزارة للخليفة العباسى الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ثم لولده الظاهر بأمر الله أبو نصر ، ثم للمستنصر الذى قبض عليه وسجنه ، فمرض ومات بعد ذلك عام ٥٦٢٩ (١٢٣١) .

انظر : ابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٣٩ - ٢٤١ ،

ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٣) المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٢٠ ،

الخطوط ج ٢ ص ٢٢ - ٢٣ .

الكامل عند هذا الحد ، وإنما حدث بعد وفاة الصاحب صفي الدين بن شكر
(ت ٥٦٣٠/١٢٣٢م) ^(١) وزير الكامل أن عهد الكامل إلى الشيخ معين الدين
بتدبير السلطنة الأيوبية ولقبه نائب الوزارة ^(٢) كما أن الكامل بعد أن استولى على
آمد ^(٣) ، أناب بها الشيخ معين الدين أحمد ^(٤) .

يبد أن الأهمية السياسية والحربية لمعين الدين أحمد تتجلى بوضوح زمن السلطان

(١) هو الوزير الكبير صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر وأصله من
الدميرة ، وهي قرية بالوجه البحري من أعمال مصر . وكان صفي الدين المذكور
وزيرا مهما عالما فاضلا له معرفة بقوانين الوزارة وكانت عنايته مصروفة إلى العلماء
والفقهاء والأدباء .

انظر : أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ١٥١ - ١٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٨٠ .

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٤٤ ،

النابلسي : لمع القوانين المضيه ، ص ٣٦ ،

المقريزي : السرك ، ج ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

والمعروف أن الكامل في بداية حكمه استوزر صفي الدين بن شكر وزيراً إليه
العادل ، وبعد وفاته لم يول أحد الوزارة ، وإنما استعان ببعض الفضلاء في تدبير
شؤون الحكم .

انظر : أبو الفدا : المختصر ، ص ١٦١ .

(٣) آمد إحدى بلاد ديار بكر

ياقوت : البلدان ، ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٤٠ .

الصالح نجم الدين أيوب الذي آل إليه حكم الديار المصرية عام ٦٣٧هـ (٢٣٩م). ذلك أنه عقب انتظام الملك الصالح أيوب بمصر، استوزر معين الدين بن شيخ الشيخ دوسلم إليه أمور المملكة وذلك في يوم الخميس الحادي عشر من ذي القعدة عام ٦٣٧هـ، (١) فقام معين الدين بوزاره الملك الصالح خير قيام (٢) ومن الجدير بالذكر أنه منذ عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م، وحتى وفاة معين الدين أحمد بن الشيخ، لعب معين الدين دوراً هاماً وخطيراً في تاريخ السلطنة الأيوبية في كل من مصر والشام (٣).

ولم يقتصر الدور الذي لعبه معين الدين في الدولة الأيوبية على النواحي السياسية والإدارية والنظر في مصالح البلاد والعباد (٤)، وإنما تعداه إلى المشاركة في مضمار الحرب والقتال، خاصة ضد الصالح اسماعيل صاحب دمشق (٥).

(١) المقرئى : السلوك ، ١٥ ق ٢ ص ٢٩٩ ،

ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥١ ،

ابن أيك : الدر المطلب ، ص ٣٤٣

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٢٧٧

(٣) سكن الصاحب معين الدين أحمد داخل قاعة من قاعات القصر الكبير

واتخذها سكناً بعده أخوه فخر الدين ، لنا عرفت باسم قصر أولاد الشيخ .

انظر : المقرئى : الخطط ، ص ٤٠٣ .

(٤) المقرئى : السلوك ، ١٥ ق ٢ ص ٢٩٩ ،

السيوطى : حسن المحاضرة ، ص ٢١٦ .

(٥) العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، ص ٢١٨

قنى عام ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) رسم السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى وزيره
معين الدين بن شيخ الشيوخ أن يخرج على رأس الجيش ليستولى على دمشق من
الصالح اسماعيل ويكون نائبه فيها ، وفوض إليه حكمها ، وأقامة مقام نفسه ،
كما أمر الصالح نجم الدين أيوب الخوارزميه بأن يعملوا تحت قيادة معين
الدين أحمد (١) .

ومن يتبع وصف هيئة معين الدين أحمد بن الشيخ أثناء خروجه على رأس
الجيش المصرى للإستيلاء على دمشق يدرك جيداً مدى ما وصل إليه معين الدين
من مكانه وهيبه كبيره فى الدولة الايوبية (٢) . فيشير المؤرخون إلى أن الصاحب
معين الدين خرج على رأس العساكر من القاهرة ومعه الدهليز السلطاني والخزائن (٣)
وأقامه السلطان مقام نفسه ، وأذن له فى أن يجلس على رأس العسكر ، ويركب
كما هى عادة الملوك ، وأن يقف الطواشى (٤) شهاب الدين رشيد استاذ (٥) السلطان

(١) ابن ابيك : الدر المطلب ، ص ٣٥٤ .

(٢) المقرئى : الخطط ، ٢٠ ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) يلاحظ انه لا يخرج بهذه الهيئة إلا الملوك والسلاطين .

(٤) الطواشى وجمعه طواشيه هم الخصيان الذين استخدموا فى الطباق ، املوكية
وفى الحرم السلطاني :

انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٤٣٣ .

(٥) الاستادار : وظيفة من وظائف ارباب السيوف يتولى صاحبها شئون
بيوت السلطان كلها ، وله مطلق التصرف فى احضار ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان
من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك من المماليك وغيرهم .

انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ص ٣٨٩ ،

القلقشندى : صبح الاعشى ، ٣ ص ٢٠ .

في خدمته على السباط ، ويقف أمير جاندار (١) والحجاب (٢) بين يديه ، كما ذكروا
في خدمة السلطان (٣) .

وما أن وصل ميم الدين بن الشيخ إلى غزه ، حتى انضم إليه الجيش الخوارزمي
واتجه الجميع إلى بيان (٤) ، ومنها اتجهوا صوب دمشق أواخر عام ٦٤٢ هـ .

(١) أمير جاندار : هو الشخص الذي يستأذن لدخول الأمراء للخدمة أمام
السلطان ، ويدخل امامهم إلى الديوان .

القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠ ،

المقريزي : السلوك ج ١ ق ١ ص ١٣٣ حاشية رقم ١ .

(٢) الحجاب جمع ومفردة حاجب ، ويقوم صاحب هذه الوظيفة بالانصاف
بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن وجد ، وإليه تقديم من
يعرض ومن يرد ، وعرض الجند وما ناسب ذلك .

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ١٣٣ حاشية ٢

القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٩ ،

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٥ ،

ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ٣٤١ ،

المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣١٨-٣١٩ .

(٤) بيان مدينة بالأردن بالغور الشامي ، ويقال هي لسان الأرض ، وهي =

(١٤٤م) وكان قد تحصن بها كل من الصالح اسماعيل صاحبها ، والمنصور ابراهيم صاحب حمص (١٢) .

وبوصول جيش معين الدين أحمد بن شيخ الشيوخ إلى دمشق بدأ الخوارزميه في التضييق على أهل البلد وقطع كل الطرق والامدادات عنها ، فاشتد ذلك على أهل دمشق وسادهم الخوف وازدادت حالتهم سوءا (١٣) .

ويبدو أن الصالح اسماعيل صاحب دمشق أراد أن يثني عزم معين الدين عن مواصلة القتال والاستيلاء على دمشق وذلك بتذكيره بأصله الصوفي وأنه لا يليق له أن يتخلى عن وضعه كرجل دين متصوف ، ويتحول إلى رجل محارب يتلى قلبه بالقسوة يقاتل الأمراء والملوك ، فيشير المورخ سبط بن الجوزي (٤) وهو معاصر لتلك الأحداث ، أنه في يوم الاثنين الثامن من المحرم - عام ٦٤٣/٢٤٥م -

== بين حوران وفلسطين ، وتوصف بكثرة النخل .

ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ٥٢٧

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٤٧ .

(٢) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٧٢ - ١٧٣ ،

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٥٢ ،

أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٧٩

(٤) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٨٥٢

وانظر أيضا : ابن ابيك : الدر المطلوب ، ص ٣٥٤ ،

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٣١٨ - ٣١٩ .

بمث الصالح اسماعيل إلى معين الدين بن الشيخ سجاده وباريقا وعكازا ، وقال
إشتغالك بهذا أولى من إشتغالك بقتال الملوك .

غير أن هذه الحرب النفسية التي أرادها الصالح اسماعيل لم تؤثر في نفسه معين
الدين بن الشيخ ، الذي اتصف كرجل دين بصلافة الرأي بالاضافة إلى إيمانه المطلق
بالله ، فأرسل إلى الصالح اسماعيل رداً على رسالته السابقة وبصحبته « جنك (١) »
وزمر وغلاله حرير أحمر وأخضر ، وقال له : السجاده وما معها تصلح لي ، وأنت
أولى بالغلاله والجنك والزمر من الملك ، (٢) .

ولم يلبث أن شدد معين الدين بن الشيخ الحصار على دمشق ، وأخيراً زحف
ومعه الخوارزميه صوب دمشق ورموها بالنيران (٣) . ولم يستطع الصالح اسماعيل
الصمود في وجه جيوش معين الدين بن الشيخ ومن معه من الخوارزميه ، فكتب
معين الدين في أمر الصلح وتسليم دمشق له وحقن الدماء . ووافق معين الدين على
عقد الصلح ، وفي يوم الخميس العاشر من جمادى الآخرة عام ٦٤٣ هـ - ١٢٤٥ م
تسلم معين الدين بن الشيخ دمشق وأعمالها وحصونها وبلادها ، وديرها تدبيراً
جيداً ، (٤) .

(١) الجنك من أدوات الطرب والغناء .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٨٠ ، ٧٥٢ ،

ابن ابيك : الدر المطلوب ص ٣٥٤ .

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٨٠ ، ٧٥٢ .

(٤) ابن العميد . أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٥ ، =

ويعلق المؤرخ أبو شامة (١) - وهو معاصر لهذه الأحداث وشاهد
عيانها - على حسن سياسة وتدابير معين الدين لدمشق بقوله : « انه باستيلاء
الصاحب معين الدين شيخ الشيوخ نائب صاحب مصر على دمشق ورحيل
سلطانها الصالح اسماعيل عنها زال الخوف عن البلد والظلم والمصادرات
والوجل » .

وعلى هذا النحو استطاع معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ، ذلك الرجل
العالم المتصوف الزاهد المتعبد أن يقهر أحد ملوك البيت الأيوبي بالشام ويستولي
على دمشق ويميدها إلى محذومه السلطان الصالح نجم الدين أيوب .

وأستمر معين الدين يحكم دمشق نيابة عن الصالح نجم الدين أيوب ، منذ
استيلائه عليها في جمادى الآخرة عام ٦٤٣ هـ ، حتى ليلة الأحد الثاني والعشرين من
شهر رمضان عام ٦٤٣ هـ (١٢٤٦ م) حيث توفي بدمشق ، ودفن بها بجوار
أخيه عماد الدين عمر بجبل قايسون (٢) ، بعد أن شارك مشاركة فعالة في مضمار

== أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ص ٧٤ ،

ابن واصل - مفرج الكروب - ج ٥ ص ٣٤٨ ،

المقريزي : الخطط - ج ٢ ص ٣٢ - ٣٣ ،

العماد الحمبلي : شذرات الذهب ، ج ٥ ص ١٨١

(١) ذيل الرضتين ، ص ١٧٩ ،

(٢) أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٧٧ ،

ابن العميد : اخبار الايوبيين ، ص ١٠٦ ،

الحرب والسياسة في تاريخ مصر والشام في العصر الأيوبي ، بالإضافة إلى دوره
المعروف في الحياة العلمية والدينية في تلك الفترة .

سجده الباحث عماد أمير
ونسقه وفهرسه

جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

= ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٥٥ ص ٢٤٩ ،

المقريزي : الخطط ، ص ٢٣ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ص ٦٥ ص ٢٥٢ - ٢٥٣

فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ

حياته :

أما الأمير فخر الدين يوسف فهو الابن الأصغر لشيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه ، ووالدته ابنة القاضي شهاب الدين بن أبي عصرون . ولد بدمشق بعد الثمانين وخمسمائة (١) ، وتربى وتعلم بها ، ثم تنقل بين بعض المدن الشاميه لتلقى العلم ، وسمع الحديث من أبي الحسن الطبري ومحمد بن يوسف الغزنوي وغيرهما (٢) . ثم وفد مع والده إلى مصر ، وعاش بها مقربا من أبناء البيت الأيوبي ، مثله مثل بقية إخوته .

ويبدو أن فخر الدين يوسف اختلف عن بقية إخوته في أنه لم يتقيد بالمشيخة — دار الصوفيه — والعلوم الدينية ، وإنما توسع في بقية العلوم الأخرى الفلسفية والحكمية ، وشارك في كل فن (٣) ، وألتقى بفكره مع الملك الكامل محمد ابن العادل الأيوبي ، حيث شغف كلاهما بدراسة العلوم .

(١) ذكر السبكي أن فخر الدين يوسف ولد بدمشق عام ٥٣٢ هـ ، وهذا خطأ واضح فمن الثابت أن والد فخر الدين ولد بعد عام ٥٤٠ هـ فكيف يكون فخر الدين من مواليد عام ٥٣٢ هـ (طبقات الشافعية ، ص ١٥٢-١٥٣) .

(٢) المعاد الخبلي : شذرات الذهب ، ص ٢٣٨ — ٢٢٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ١٦٩ .

وقد شارك فخر الدين يوسف مثله مثل بقية إخوته في الحركة العلمية في العصر
الأيوني ، فتولى وظيفة التدريس بالمدرسة الناصرية بجوار قبر الشافعي ، وكذلك
التدريس بالمدرسة المجاورة للشهد الحسيني بالقاهرة (١) .

غير أن المهم لدينا هو خروج فخر الدين عن نطاق التدريس والعلوم الدينية
والحياة العلمية، إلى المشاركة في مضمار الحكم والسياسة (٢) . ويشير المؤرخون (٣) إلى
أن فخر الدين دخل العمامة (٤) ، ولبس الشربوش (٥) والقبلة (٦) ، ونادم السلطان
الكامل .

ويعني هذا أن فخر الدين خرج عن نطاق العلماء والفقهاء ليس فقط في أعماله

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ١٧٠ .

(٢) Gottschalk : Awlad el Shaykh, p. 766 .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٥ ص ١٦٩ .

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٦١ .

(٤) كانت العمامة زيا عرف به القضاة والعلماء ومشايخ الصوفية وتكون من

الشاشات الكبار .

انظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٢-٤٣ .

(٥) الشربوش قلنسوة طويلة أعجمية ، وتلبس بدل العمامة ، وكانت شارة

للأمراء ، فلا يلبسها رجال العلم .

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ١ ص ٢٥١ ، حاشية رقم ١ .

(٦) القباء الإسلامي والقباء النكري زي من أزياء أرباب السيوف ،

القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣٩-٤٠ .

وإنما كذلك في مظهره الخارجى وزيه ، فلم يعد يرتدى زى العلماء والفقهاء وإنما ارتدى زى الأمراء . وإذا كان إخوته الثلاثة قد شاركوا في مضار الحرب والسياسة بالإضافة إلى استمرارهم في تأدية وظيفتهم كعلماء وفقهاء ، كما أنهم لم يتخلوا عن زى العلماء ، فإن فخر الدين يوسف اختلف عنهم كثيرا عندما ترك نهائيا لبس العمامة وتزيا بزى الأمراء ولبس الشربوش والقباء .

واستمر الأمير فخر الدين يوسف ملاصقا للسلطان الكامل طيلة حياته ، بحاله ويأمره ، ويستعين به الكامل في تصريف شئون دولته الداخلية^(١) ، وهو نال في إقرار سياسته الخارجية ، خاصة ذلك الدور الخطير الذى لعبه في توطيد علاقة الكامل سلطان الديار المصرية بأكبر قوة في الغرب الأوروبى وهى قوة الامبراطور فردريك الثانى إمبراطور الامبرطورية الرومانية المقدسة .

ويبدو أن شهرة فخر الدين ومهارته وبراعته في فنون الحرب والسياسة بالإضافة إلى غزارة علمه ، جعلت فردريك الثانى الذى لقبه المؤرخون « بأعجوبة الدنيا »^(٢) ، يمنحه مرتبة « الفروسية » ، وهى رتبة رفيعة لا تمنح إلا للجدير بها .

(١) النابلسى : لمع القوائين المضية ، ص ٤

(٢) Kantorwicz ; Fredrick the Second, p 85.

والمعروف أن فردريك الثانى اهتم بالعلوم كالحكمة والمنطق والطب والهندسة والحساب والرياضيات ، وشفق بالعلوم الاسلامية .

أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٤ ، ص ٢٣٤ ،

ابن الوردى : تاريخه ، ص ٢ ، ص ١٥٠ ،

المينى : عقد الجمان : حوادث عام ٦٢٥ هـ (مخطوط) .

وعلى هذا النحو نال فخر الدين يوسف مرتبة عالية في سلطنة الكامل محمد ،
وشغل عدة مناصب كبيرة ، ووصلت أخباره إلى بغداد حيث يقيم الخليفة
العباسي الذي أخذ يتبع أخباره .

ومن الشواهد الدالة على تتبع الخليفة العباسي لأخبار وأحوال فخر الدين
يوسف بن شيوخ الشيوخ ، تلك الحادثة التي ذكرها المؤرخون وهي أن فخر الدين
عندما كان استادارا للكامل أقام فوق سطح أحد المساجد بمصر طبلخاناه (١) ، غير
أنه عندما تحقق قاضي مصر والوجه القبلي عز الدين بن عبد السلام من ذلك
غضب كثيرا لاتخاذ بيت الله مكانا للطبلخاناه ، وأصدر حكما يهدم ذلك البناء كما
أقضى بإسقاط فخر الدين وعزلة عن وظيفته وإبعاده عن شؤون الحكم والسياسة .
غير أن الكامل لم يأخذ بفتوى قاضي مصر ابن عبد السلام واستمر فخر الدين يلى
وظيفته . ولم تمض فترة قصيرة على هذه الحادثة إلا وجهز السلطان الكامل محمد
رسولا من عنده إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر ،
فلما وصل الرسول إلى الديوان ، ووقف بين يدي الخليفة ، وأدى الرسالة إليه

(١) حوليات جوانفيل ، ص ١٠٨ .

(٢) الطبلخاناه لفظ مركب من كلمة طبل وهي بالعربية ، وكلمة خاناه وهي
فارسية ومعناه مكان الفرقة الموسيقية . وكانت العادة أن تدق نوبة في كل ليلة
بالقلمة بعد صلاة المغرب ، وتكون في صحبة السلطان في الأسفار والحروب .

أنظر : القلقشندي : صبح الأعشى ، ص ٤٨ ، ١٣ ،

المقريزي : السلوك ، ص ١٤٦ حاشية رقم ٢ .

سأله الخليفة : هل سمعت هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال الرسول : لا . ولكن حملتها من السلطان فخر الدين بن شيخ الشيوخ استاداره . فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فنحن لانقبل روايته (١) .

وبوفاة الملك الكامل محمد (ت ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م) اضطربت أمور السلطنة الأيوبية في مصر والشام ، وإذا كان الكامل قد أقر على حكم مصر فإنه العادل الصغير ، فإن بلاد الشام وقعت في فوضى شاملة وتصارع أمراء البيت الأيوبي حول إمتلاك الشام . وأثناء هذا الصراع تفجر الحقد على فخر الدين يوسف الذي كان مسموع الحكمة لدى الملك العادل الصغير . وانتهى هذا الحقد بإحداث الفتنة بين العادل الصغير وبين فخر الدين يوسف تلك الفتنة التي اتهمت بسجن فخر الدين (٢) .

وظل فخر الدين مسجوناً حتى سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي أفرج عن الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ من سجن العادل (٣) ، فالتف حوله أهالي البلاد وترددوا على داره (٤) ، وذلك لما اتصف به فخر الدين من كرم

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٦٢ .

وانظر أيضاً :

ابن واصل : مفرج الكروب - ص ٣٣ ،

التويري : نهاية الأرب - ٢٧٠ ورقة ٧٧ (مخطوط) .

(٢) انظر تفصيل هذا الموضوع فيما بعد .

(٣) أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٠ .

(٤) المقرئزي : السلوك ، ١٠ ق ٢ ص ٣٠٩ .

وحسن سيره، (١). بيد أن هذا الوضع الذي أصبح فيه الأمير فخر الدين لم يوجب الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخشي ازدياد نفوذ الأمير فخر الدين (٢)، خاصة بعد أن اعتاد فخر الدين الركوب في هيئة عظيمة أثارت شكوك الصالح أيوب، وأخيراً أصدر الصالح نجم الدين أيوب أمره عام ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) بأن يلازم فخر الدين يوسف داره (٣). وعلى هذا النحو تحددت إقامة فخر الدين يوسف، ولم يشارك في أمور السياسة والحكم.

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٥ ص ٢٧٧،

السبكي: طبقات الشافعية، ج ٥ ص ١٥٢،

أبو المحاسن: النجوم، ج ٦ ص ٣٢٠.

(٢) يبدو أنه لم يكن هناك وفاق منذ البدايه بين الصالح نجم الدين أيوب وبين الأمير فخر الدين يوسف، ويدلنا على هذا ما رواه ابن العميد من أنه بعد وفاة المعظم عيسى صاحب دمشق عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م، وحدث الشقاق بين الكامل محمد وبين الناصر داود بن المعظم عيسى، عزم الكامل محمد على الخروج من مصر والاتجاه صوب دمشق للاستيلاء عليها، وأتاب على حكم مصر أثناء غيبته ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف لتحصيل الأموال وتدير السلطنة، غير أن فخر الدين خشي على نفسه من الصالح أيوب، وفضل المضي إلى الشام ليكون في خدمة الملك الكامل.

انظر: ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٣٧،

ابن العديم: زبدة الحلب، ج ٣ ص ٢٠٢،

ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢ ص ١٣٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٥ ص ٢٧٧،

السبكي: طبقات الشافعية، ج ٥ ص ١٥٢،

وأستمر الأمير فخر الدين يوسف معتقلاً في داره حتى أوائل عام ٦٤٣ هـ
(١٢٤٥ م) عندما أفرج عنه الملك الصالح نجم الدين أيوب (١) ، ويشير سبط
ابن الجوزي (٢) إلى أن الأمير فخر الدين ولاقى شداً من الضيق والضرب أثناء
وجوهه بالحبس ، كما أن القمل ما كان يمكنه - أي فخر الدين - من النوم .

ويبدو أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لم يقدم على الإفراج عن الأمير
فخر الدين إلا بعد وفاة أخيه الشيخ معين الدين بن شيخ الشيوخ في رمضان
عام ٦٤٣ هـ (١٢٤٦ م) ، وهو الرجل الذي اتخذ الصالح أيوب - كما سبق أن
أشرنا - وزيراً له ، لأنه بوفاة معين الدين لم يبق حياً من أولاد صدر الدين
شيخ الشيوخ سوى الأمير فخر الدين . وفي نفس الوقت كان الصالح أيوب في حاجة
لمن يقوم بتدبير ملكه ، ولم يكن أمامه بعد وفاة معين الدين إلا أن يفرج عن
الأمير فخر الدين ليقوم بتدبير شئون مملكته (٣) ، وعهد إليه بالوزارة (٤) ، ثم

== المقريزي : السلوك ، ج ١٣ ق ٢ ص ٣٠٩ ،

أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٢٠ .

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٦ ،

المقريزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٥٥ .

وانظر أيضاً : السيكي : طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ١٥٢ .

(٣) ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٧٤ .

وفوض إليه اختيار من يصلح لتولي شئون الدواوين .

النابلسي : لمع القوانين المضيه ص ٤ .

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ٢١٦ .

عهد إليه بمد ذلك بنبابة السلطنة^(١).

وأستمر الأمير فخر الدين يشارك مشاركة فعالة في أمور السياسة والحكم
والحرب منذ الافراج عنه عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٦ م وحتى مقتله عام ٦٤٧ هـ /
١٢٥٠ م.

(١) السبكي : طبقات الشافعية ، ص ٥٢ - ١٥٢ .

من الطريف أنه قد وصلت إلى الديار المصرية رسل الخليفة العباسي المستنصر بالله بالخلع والتقاليد للصالح أيوب ، ومعه خلمه لوزيره معين الدين بن حمويه ، غير أن معين الدين كان قد توفي فأمر الصالح أيوب أن يلبس الخلمه أخوه الأمير فخر الدين يوسف .

انظر : ابن العميد : اخبار الأيوبيين ص ١٥٦ ،

المقرئى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٣٢٣ .

الأمير فخر الدين مدبر السلطنة :

احتل الأمير فخر الدين مكانة بارزة زمن الكامل محمد الأيوبي واتخذ الكامل عوناه في تدبير شئون السلطنة الأيوبية ، من ذلك على سبيل المثال ما حدث عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) عندما خرج الكامل لمحاربة ابن أخيه الناصر داود والاستيلاء على دمشق وإثابة ابنه الصالح أيوب في حكم الديار المصرية ، وفاقام معه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ليحصل الأموال ويدير أمور المملكة (١) . ولم يقتصر الأمر على ذلك وإنما عهد الكامل إلى فخر الدين كذلك بالإشراف على مختلف شئون الدولة ، وأناط به مهمة إختيار من يثق فيهم لولاية الدواوين (٢) . ولم تقتصر جهود الأمير فخر الدين يوسف عند هذا الحد وإنما تعدى ذلك إلى تدبير الكامل محمد في بعض المشاكل الخاصة التي اعترضت طريقه .

وهناك حادثة تصرف خلالها الأمير فخر الدين يوسف بحكمة ولباقة ودبلوماسية مما أدى إلى عدم المساس بالسلطان الكامل . ومجمل هذه الحادثة أنه كان بمصر مغبة تدعى «عجبية» أولع بها السلطان الكامل محمد ، فكانت تحضر إليه

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٧ .

المقريزي : السلوك ، ١٠ ق ٢ ص ٢٢٥ .

وأنظر ما سبق ص ٥١ جاشيه رقم ٢ .

(٢) النابلسي : لمع القوائين المضيه ، ص ٤ .

ليلاً، وتغنى له على الدف في مجلس يحضره الأمير فخر الدين شيخ الشيوخ . ثم اتفق أنه كانت هناك قضية شمد فيها الملك الكامل بنفسه عند القاضي ابن عين الدولة قاضي الوجهين القبلي والبحري (١) ، فلم يأخذ القاضي بشهادة الكامل تجريباً له لهلاقتة بالمغنية وعجيبه . غير أن السلطان الكامل أصر على أن يؤخذ بشهادته، وقال للقاضي : أنا أشهد تقبلني أم لا ؟ فقال القاضي : لا أقبلك ، وكيف أقبلك وعجيبه تطلع اليك بمنكها كل ليلة وتنزل ثاني يوم بكره وهي تمايل سكري على أيدي الجوارى ، وينزل ابن الشيخ من عندك : فقال له السلطان : ما كيواج — كلمة شتم بالفارسية — فقال القاضي : ما في الشرع يا كيواج ، اشهدوا على أنني قد عزلت نفسي .

وعلى هذا النحو عزل القاضي ابن عين الدولة نفسه عن قضاء مصر ، لاصراره على عدم الأخذ بشهادة الكامل ، وأمام اصرار الكامل على الأخذ بشهادته . وكان من المتوقع أن تنتشر هذه العادة وتصل الى مسامع كافة الأمراء والحكام والخليفة العباسي ، في وقت وقف فيه كثير من أمراء البيت الأيوبي ببلاد الشام موثقاً مما ديا من الكامل محمد فكان من المتوقع اذا وصلت اليهم هذه الواقعة أن يتخذوها أداة للتشنيع على الكامل محمد يطالبون بعزله عن الحكم لانحرافه ولهموه

(١) هو أبو المكارم محمد بن عين الدولة ، أصله من الاسكندرية ، ولد بها عام ٥٥١ هـ وترقى وعاش بالفسطاط ، تولى قضاء القاهرة والوجه البحري والقبلي عام ٥٦٣ هـ ، وكانت له نوادر كثيرة ، وكان أدبياً له نظم ونثر ، عضيفاً زاهدا ورعاً .
أنظر : ابن سميذ الأندلسي : المغرب في حلي المغرب ١ ص ٢٥٦-٢٥٧

ابن الصهاد الحنبلي : شذرات الذهب ، ٥ ص ١٨١ .

وميله الى « عجيبة » . ولا شك في أن الأمير فخر الدين يوسف الذي كان حاضراً
تلك الوقعة خشي من العواقب السيئة التي ستتبعها، لذلك سارع بحسم هذا الموقف
الخطير ، فأشار على الكامل بضرورة الاسراع في إعادة القاضي ابن عين الدولة
إلى منصبه ، لئلا يقال لأي شيء عزل القاضي نفسه ؟ وتطير الأخبار إلى بغداد
وبشيع أمر عجيبة . ونهض إلى القاضي وترضاه وعاد إلى القضاء . (١)



وبوفاة الملك الكامل محمد (ت ٥٦٣٥ / ١٢٣٧ م) اضطربت أمور السلطنة
الأيوبية في مصر والشام ، وإذا كان الملك الكامل قد أقر على حكم مصر ابنه العادل
الصغير ، فإن بلاد الشام وقعت في فوضى شاملة ، وتصارع أمراء البيت الأيوبي
حول إمتلاكها ، ولم يكن الأمير فخر الدين يوسف بعيداً عن مضمار هذا الصراع
السياسي وإنما شارك فيه مشاركة فعالة .

ويشير صاحب مرآة الزمان (٢) ، وهو من المؤرخين المعاصرين لأحداث
دمشق في تلك الفترة ، إنه بعد وفاة الكامل « إختلفت الأمراء فيمن يولون فقالوا
لفخر الدين بن الشيخ ، ما تقول في الجواد ، فقد اتفق الأمراء عليه — أي أن
يتولى حكم دمشق — فقال — أي فخر الدين — المصلحة أن يولى بعض الخدام
نائباً عن ابن أستاذنا العادل متى شاء عزله ومتى شاء أبقاه ، ولا تولوا أحداً من
بيت الملك ما يقدر أحد بعد ذلك عليه ويحكم علينا ، وبلغ الجواد ذلك فجاء إلى
فخر الدين وقال له : يا فخر الدين أنت وأنا ربينا في خدمة الكامل وبيننا خبز

(١) البيهقي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٦١ :

(٢) سبط بن الجوزي ج ٨ ص ٧٠٧

وملح وأنا ملوكك ، ووعده أن يعطيه مائة وخمسين فارساً وعشرة آلاف دينار .
فقال فخر الدين : والله ما وافقت إلا على ما فيه مصلحة ابن استاذي .

غير أن الأمراء لم يأخذوا برأى الأمير فخر الدين يوسف في استبعاد الجواد
عن حكم دمشق ، وهالوا إلى رأى شقيقه عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ وأقروا
الجواد في حكم دمشق (١) ، مما دفع الأمير فخر الدين إلى مفادرة دمشق متجهاً
إلى مصر ليكون عوناً للملك العادل الصغير في تدبير شئون سلطنته .

ولم يهنأ الأمير فخر الدين بالمقام طويلاً في خدمة الملك العادل الصغير فقد حدث
أن خشي الناصر صاحب الكرك بعد حضوره إلى مصر بقصد الاستيلاء عليها عن
طريق الحيلة خشي أن يفسد الأمير فخر الدين خططه لذلك فكر في وسيلة يبعد
بها فخر الدين عن حلبة السياسة والحكم بالديار المصرية ، ويشير المؤرخ ابن العميد (٢)
إلى ذلك بقوله : « بعد أن أقام - أي الناصر داود - عند العادل مدة ، استولى
على عقله وأوهمه من الأمير فخر الدين بن الشيخ ، بأنه قد اتفق مع الملك الممزمج
الدين عمه (٣) ، وانهما قد استمالا جماعة من الأمراء ، وأشار - أي الناصر
داود - عليه بالقبض على ابن الشيخ وإخراج الملك الممزمج من الدين همه من البلاد ،

(١) انظر ما سبق ص ٢٥

(٢) أخبار الأيوبيين ، ص ١٤٥ .

(٣) الملك الممزمج مجير الدين يعقوب بن العادل ابن بكر بن أيوب توفي

سنة ٦٥٤ هـ .

الزبيدي : ترويح القلوب ص ٥٩ وحاشية رقم ٥٤ .

ولم يتأخر الملك العادل عن تنفيذ ما أشار به الناصر داود من القبض على الأمير
نجر الدين يوسف بن الشيخ وسجنه عام ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) ظناً منه أن الناصر
داود يعمل لمصلحته وحتى تستقيم الأمور له (١). دون أن يعلم أن الناصر
داود ما حضر إلى مصر إلا ليثير الإضطرابات في وجهه، ويعمل من أجل تقويض
نفوذه في مصر ليسهل عليه الاستيلاء على حكم الديار المصرية، وأن الأمير نجر
الدين لا يعمل هو الآخر إلا من أجل الإبقاء والحفاظ على العادل الصغير ابن
استاذة ١١

* * *

وإذ كان الأمير نجر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قد خبا بمحمة بعض الوقت
واعتقل عدة سنوات زمن العادل الصغير، ثم أطلق سراحه زمن الصالح أيوب
الذي عاد وحدد إقامته مرة أخرى — كما مر بنا سابقاً — فان الصالح أيوب لم
يلتفت أن أطلق سراحه بعد ذلك واستعان به في تدبير شؤون السلطنة الأيوبية وعهد
إليه بالوزارة ونياية السلطنة (٢).

(١) يشير المقرئ إلى سبب آخر دفع العادل الصغير إلى القبض على الأمير
نجر الدين يوسف وهو مراسلته للملك الصالح نجم الدين أيوب، والذي كان قد توجه
صوب الجنوب بقصد الاستيلاء على الديار المصرية من يد العادل الصغير. السلوك،
١٠ ق ٢ ص ٢٨٤ وانظر أيضا:

ابن واصل: مفرج الكروب - ص ٢٧٦

(٢) السيكى: طبقات الشافعية، - ص ١٥٢،

السيوطى: حسن المحاضرة، - ج ٢ ص ٢١٦.

غير أن الدور الهام الذي لعبه الأمير فخر الدين في تدبير شؤون السلطنة الأيوبية في الديار المصرية كان بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب نفسه . ذلك أنه حدث في ليلة الاثنين نصف شعبان عام ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) أن توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالمنصورة ، بعد ما عهد إلى ابنه الملك المظلم تورانشاه بالحكم ، وحلف له الأمير فخر الدين بن الشيخ وغيره من الأمراء (١) . وفي تلك الأثناء كان الصليبيون قد استولوا على دمياط (٢) .

وكانت وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب في تلك الظروف الحرجة التي تمر بها الديار المصرية يمكن أن تؤدي إلى إنبهار قوة الجيش المصري أمام الصليبيين ولذلك اتفقت شجرة الدر ، أرملة السلطان الصالح أيوب مع الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ الذي كان يتولى وظيفة مقدم العسكر ونائب السلطنة ، والطواشي جمال الدين محسن على ضرورة كتمان خبر وفاة السلطان ، حتى لا يتسرب الضعف إلى نفوس الجند من جهة وحتى لا يتهمز الصليبيون هذه الفرصة فيقوموا بهجوم خاطف على المعسكر الإسلامي من جهة أخرى (٣) .

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٩ ،

المقريزي : السلوك ، ١٣ ق ٢ ص ٣٣٩ .

(٢) المقريزي : السلوك ١٣ ق ٢ ص ٣٣٦ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ٩٣ ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ٣٣ ص ١٨٠ ،

ابن خلدون : المعبر ، ٥٣ ص ٣٦٠ ،

المقريزي : السلوك ، ١٣ ق ٢ ص ٣٤٢ .

وفي نفس الوقت اتفقت شجر الدر مع الأمير فخر الدين يوسف على أن يقوم بتدبير شؤون السلطنة إلى أن يحضر الملك المعظم تورانشاه ابن السلطان الصالح أيوب، والذي كان مقيماً بحصن كيفا. (١)

وفي نفس اليوم جمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم «السلطان - الصالح أيوب - يأمركم أن تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا، وللأمير فخر الدين بن الشيخ بأتابكويه العسكر» (٢)، وتدبير المملكة (٣). فأمثل الأمراء لذلك (٤)، وقام الأمير فخر الدين بتحليف الأمراء لتورانشاه وله

(١) ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٥٩.

حصن كيفا: بلدة وقاعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر.

ياقوت: معجم البلدان، ٢، ص ٢٦٥.

(٢) أتابك العسكر، أو الأتابك، لقب يتألف من لفظين تركيين وهما أطا بمعنى أب وبك بمعنى أمير، وأطلق هذا اللفظ زمن السلاجقة على أحد الأمراء الكبار الذين يولونه الوصاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير. وفي أيام المماليك بمصر أطلق على مقدم العسكر أو للقائد العام للجيش ولذلك سمي بأتابك العسكر.

انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ص ١٨،

المقريزي: السلوك، ص ١٤٦ حاشية رقم ١.

(٣) أبو الفدا: المختصر، ص ١٨٠،

المقريزي: السلوك، ص ٢٤٢ ح ١ ق ٢.

(٤) ابن أيوب: الدر المطلب، ص ٣٢٣.

من بعده^(١) ، كما أنفذ إلى مختلف البلدان بمصر والشام بنسخة الايمان ليحلف كافة
الامراء للمعظم تورا انشاء^(٢) .

والجدير بالذكر أن كل هذه الاجراءات اتخذت دون أن يعلم الفرنج ولا سائر
الامراء بخبر وفاة الصالح أيوب^(٣) . مما يدل على براعة الأمير فخر الدين بن الشيخ
للذي تولى من اللحظة التي توفى فيها الصالح أيوب أمر تدبير السلطنة .

وعلى هذا النحو تولى الأمير فخر الدين يوسف ههيج الشيوخ أتباكية العسكر
وتدبير المملكة الأيوبية بمصر والشام دون أن يشاركه أحد في ذلك . وخلال الفترة
القصيرة التي قضاها فخر الدين في حكم الديار المصرية إنظمت البلاد بطابعه الخاص
فقطع البلاد منشوراته وفرق الأموال والخلع عن خواصه من الامراء ، كما أطلق
المسجونين من سجونهم ، وأحسن إلى الناس ، وأطلق الكتان والسكر إلى الشام^(٤) ،
وأعاد تنظيم الجند وزاد عدد الجنود المرابطين أمام معسكر الصليبيين بدمياط ، كما
شحن أشموم طنح^(٥) بالجند والسلاح^(٥) . كما أرسل جماعته من أعوانه لإحضار

(١) أبو المحاسن : النجوم ، ٦٥ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ص ١٥٩ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ٦٥ ص ٢٢٢ .

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ٨٥ ص ٧٧٦ ،

ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٩ ،

المقريزي : السلوك ١٥ ق ٢ ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(٤) أشموم طنح من أقدم المدن المصرية ، مدينة في الدقهلية قرب دمياط ،

وأصل اسمها القبطي أشمون الرمان .

انظر : محمد رمزي : القاموس الجغرافي ، ١٥ ص ٢٢٩ .

(٥) حوليات جوانفيل ، ص ١٠٧

المعظم ثوار نشاء سرأ ليتولى السلطنة خلفاً لوأله الصألح أوب (١) .
ومن الطريف أن الكتب التي كان يرسلها فخر الدين كانت عليها علامة السلطان
الصألح أوب ، ويقال أن أحد الخدم ويسمى « سهيل » كان يقلد علامة السلطان (٢)
ويقال أيضاً أن السلطان علم قبل موته عشرة آلاف علامة ليستعان بها في المكاتبات
لإخفاء وفاته إلى حين حضور ولده ثورأ نشاء (٣) .

ونتيجة نجاح فخر الدين يوسف في سياسة المملكة والنفاف قلوب أهالي الديار
المصرية حوله ، حسده الجند وسائر الأمراء وخشوا من استيلائه على حكم البلاد
فمزموأ على قتله ونهب داره . وعندما علم بذلك فخر الدين استدعى الأمراء
والأكابر وقال لهم : أنا مالي طمع في الملك وإنما أحفظ بيت أستاذي حتى يهيء
ولده ويتسلم البلاد . فحلفوا وإعتذروا . ويشير سبط بن الجوزي (٤) إلى أن الذي
حرك هذه المؤامرة هو الطواشي محسن ، الذي امتلأ قلبه حقداً وكرهاً على الأمير
فخر الدين يوسف .

وإذا كان الأمير فخر لدين يوسف قد تخلص من تلك المؤامرة التي حاكها

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٧٦ ،

أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٠ .

ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٦٠ .

(٢) المقرئزي . السلوك ج ١ ق ٢ ص ٢٤٣ .

(٣) المصدر السابق - ج ٢ ق ٢ ص ٢٣٩ .

(٤) مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٧٦ - ٧٧٧

الطواشي محسن ، فان الخطر الأكبر الذى واجهه فى تلك الفترة كان من ناحية الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى نائب السلطنة بمصر ، الذى كان لا يميل إلى فخر الدين منذ أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فيشير ابن ابيك (١) إلى أن الأمير حسام الدين كان أوثق وأمكن عند السلطان الصالح أيوب من الأمير فخر الدين بن الشيخ ، خاصة وأن الأمير فخر الدين إبتعد فى السنوات الأولى من حكم الصالح أيوب عن حلبة السياسة والحكم ، فى حين إنشغل الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ فى تحقيق الانتصارات الخارجية خاصة فى دمشق كما سبق أن أشرنا ، مما أتاح الفرصة للأمير حسام الدين للإنفراد بكثير من أمور الدولة وأن يتوثق لنفسه داخل الديار المصرية ، لذلك حقد على الأمير فخر الدين يوسف بمد أن أطلقه الصالح أيوب وأسند إليه مهمة تدبير السلطنة ، كما أن محبة أهالى الديار المصرية لفخر الدين بن الشيخ زادت من حقد حسام الدين . لذلك لم يكن من المتوقع أن يرحب الأمير حسام الدين بانفراد فخر الدين بتدبير شؤون المملكة ، وإنما خشى من استقلاله بحكم الديار المصرية ، أو أن يقيم فخر الدين الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل فى حكم مصر بدلا من المعظم نورانشاه ، ويستولى على حكم مصر خاصة وأن المغيث عمر كان طفلا صغيرا (٢) لذلك سارع بإرسال أحد الأمراء التابعين له ليحضر المعظم تورا نشاه على وجه السرعة وأهله وبأن المصلحة فى السرعة ، ومتى تأخرت فات القوات وتطلب الأمير فخر الدين على البلاد، (٣)

(١) الدر المطلوب ، ص ٣٧٤

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٤٥ .

(٣) المصدر السابق نفس الجزء . والصفحة .

وفي نفس الوقت سارع الأمير حسام الدين بنقل : الملك المغيث عمر من عند عمات أبيه بنات الملك العادل بن أيوب إلى قلعة الجبل ، ووكّل به من يحتاط عليه ولا يسلمه لأحد ، حتى يفسد على فخر الدين يوسف كل خطته .

ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من العداء الدفين بين كل من الأمير فخر الدين بن الشيخ وبين الأمير حسام الدين الهذلي فانها في ظاهر الأمر أظهرت المجاملات ، وقد أشار إلى ذلك تقي الدين المقرئ (١) بقوله : « والمكاتبات ترد من الأمير فخر الدين وعنوانها : من الأمير فخر الدين الخادم يوسف فيجيب عنها الأمير حسام الدين ويحمل العنوان « المعلوك أبو علي » ، فيتجاهلان في ظاهر الأمر وأما في الباطن فإن الأمير فخر الدين أخذ في الإستبداد والاستقلال بالمملكة ، وصار يركب في موكب عظيم ، وجميع الأمراء في خدمته ، ويترجلون له عند النزول ويحضرون سباطه » .

ولم يكن الأمير حسام الدين وحده هو المتخوف من نوايا الأمير فخر الدين وإنما شاركه في ذلك الخوف عدد كبير من الأمراء ، لدرجة أن جماعة المماليك الذين أرسلهم فخر الدين إلى السكرك الإستعجال المعظم تورانشاه في المسير إلى مصر لتسلم عرشه ، أو هموا هم الآخريين المعظم تورانشاه وقالوا له : « إن الأمير فخر الدين حلف المسكر لنفسه ، ومتى وصلت قتلك » مما جعل قلب المعظم تورانشاه يوغر حقداً على الأمير فخر الدين قبل حضوره إلى مصر . كما أن

== كان رسول حسام الدين إلى المعظم تورانشاه الأمير سيف الدين أقطاي الجدار .

انظر : ابن العميد : اخبار الأيوبيين ، ص ١٥٩ .

(١) السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٣٤٥

تورا نشاء بذل الاموال لهؤلاء الجند لإجتذابهم إليه ، كما حلفهم على قتل فخر الدين نفسه (١).

وعلى هذا النحو وقف كافة الامراء ضد الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ . ويبدو أن السر وراء تخوف الامراء من الأمير فخر الدين هو ما تتمتع به فخر الدين من شخصية قوية وعقلية سياسية ومهارة حربية فائقة حبت فيه أهالي الديار المصرية ، وبالإضافة إلى ذلك كان انتماء فخر الدين لأسرة شيخ الشيوخ وما تتمتع به هذه الأسرة من مكانة طيبة في نفوس أهالي الديار المصرية أثره في محبتهم له لدرجة أنهم عرضوا عليه السلطنة ولكنه رفض (٢).

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٧٧٦ - ٧٧٧ .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٧٧٧ .

المقريزي : السلوك ، ص ٣٤٢ ،

حوليات جوانقيل ، ص ١٠٨ .

دبلوماسية الأمير فخر الدين

سفارة الأمير فخر الدين الى اوربا :

نارت الخلافات بين كل من الملك الكامل محمد سلطان الديار المصرية ، وبين أخيه المعظم عيسى صاحب دمشق ، وإستعان المعظم عيسى بقوة جلال الدين الخوارزمي واتفق معه على الاستيلاء على بعض ممتلكات أخيه الأشرف موسى ، وعلى أن يسقط اسم الكامل محمد من الخطبة من على منار دمشق ويخطب للخوارزمي (١) . فخشي الكامل أن يكون اتفاقهما — المعظم عيسى وجلال الدين الخوارزمي — سببا لزوال الدولة (٢) ، لذلك أخذ يفكر في وسيلة يستعين بها لضرب ذلك التحالف المقام ضده .

وأخيرا وجد الكامل ضالته في قوة فردريك الثاني (٢١٢ — ١٢٥٠ م /

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ٨٣ ص ٦٣٤ ،

ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ١٠٣ ورقة ٦٩ (مخطوط) ،

الحوي : التاريخ المنصوري ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

المقريزي : السلوك ، ١٣ ق ١ ص ٢١٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ٤٣ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ،

العماد الحنبلي : شفاء القلوب ، ورقة ٨٥ (مخطوط) ،

ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ١٠٣ ورقة ٨٨ (مخطوط) .

٦٠٩ - ٦٤٨ هـ) امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، الذي عرف بميله للمسلمين^(١) ، واشتهر بأنه كان شاعراً محباً للأدب والفن فضلاً عن إجادته الألمانية والإيطالية واللاتينية والعربية ، محباً للحكمة والمنطق والطب متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات^(٢) . وقد إهتم فردريك الثاني بإيجاد علاقات طيبة مع حكام البلدان الإسلامية خاصة حكام مصر والشام من أبناء البيت الأيوبي . وقد عاصره في تلك الفترة الملك الكامل محمد الأيوبي سلطان مصر ، وكان الملك الكامل هو الآخر محباً للعلم والعلماء ، مما أدى إلى إتفاق الرجلين^(٣) .

وكان على الكامل محمد أن يختار سفيراً يتمتع بعلم واسع وذكاء مفرط ، وشخصية قوية ، ليكون رسوله إلى فردريك الثاني . ولم يكن لدى الكامل محمد أفضل من الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وهو الذي تنطبق عليه هذه الصفات ،

(١) نشأ فردريك الثاني في صقلية التي كانت تروج بالتيارات العربية واليونانية مما كان له تأثير كبير في تعليمه وتربيته .

انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٢٢ ،

Kantrowicz : Fredrick the Second, P 21,

Archer : The Crusades, P 379,

حامد زيان : تاريخ الحضارة الإسلامية في صقلية ، ص ١١٧ - ١١٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ٢٣٤ ،

الميني : عقد الجمان ، حوادث عام ٦٢٥ هـ (مخطوط) .

(3) Lane-Poole : Hist of Egypt, P 226,

Archer : The Crusades, P 381.

فهو من بيت علم ومعرفة ودين ، وله دراية واسعة بالعلوم والمعارف الحكيمية
ذو شخصية قوية ، لذلك أختاره الكامل لتلك المهمة الصعبة .

وفي منتصف عام ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م سافر الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ
الشيوخ إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة لمقابلة الإمبراطور فردريك الثاني ،
حيث إستقبله فردريك أحسن استقبال بمدينة بالرمو بجزيرة صقلية ، وعرض عليه
فخر الدين ترحيب سيده الكامل بقدوم فردريك الثاني إلى عكا والتنازل له عن
بيت المقدس. وبالطبع رحب فردريك بهذا العرض منتهزاً فرصة الخلافات الناشئة بين
الكامل وأخيه المعظم عيسى ، كي يحصل على بيت المقدس بدون حرب (١) .

ويبدو أن الإمبراطور فردريك الثاني قد افتتن بعلم وحكمة الأمير فخر الدين
ابن شيخ الشيوخ ، فقربه إليه ، وتناقشا معا في كثير من المسائل الحكيمية ، وكثيرا
مادارت بينهما مناقشات علمية حول موضوعات تاريخية ونظريات متصلة بعلم
السياسة وفن الحكم (٢) . ويشير الحموي إلى أن المحاورات التي جرت بين فردريك
الثاني والأمير فخر الدين شملت « أشياء ومسائل حكيمية » (٣) .

وبعد أن قضى فخر الدين فترة من الوقت بصقلية في ضيافة الإمبراطور
فردريك الثاني ، عاد إلى مصر بعد أن توطدت علاقته الشخصية بالإمبراطور

(1) Kantrowicz . Fredrick the Second, P 183,

Alfred Duggan . The Story of the Crusades, P 225,

(٢) جمال الدين الشيال : في التاريخ ، ص ٢٨٢ .

(٣) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ٨٥ .

فردريك الثاني ، تلك الملاقة التي إستمرت قائمة بين الرجلين بعد عودة فخر الدين إلى مصر (١) .

سفارة الأمير فخر الدين الى الخليفة العباس عام ٦٢٦ هـ :

عقب وفاة الملك المعظم عيسى في نهاية عام ٦٢٤ هـ (١٢٢٧م) . بدأ الكامل يفكر جدياً في تصفية مملكته التي آلت إلى ولده الناصر داود ، وإتخذ من رفض الناصر داود التنازل له عن قلعة الشوبك ذريعة ليعلن الحرب عليه (٢) . وإتفق مع أخيه الأشرف موسى بن العادل على تقسيم مملكة الناصر داود فيما بينهم بمقتضى إتفاقية تل العجول (أوائل عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) . ونص هذا الإتفاق على إنتزاع دمشق من يد الناصر داود وأن تكون للأشرف هي ومأمعها إلى عقبة فيق (٣) ، ويكون للكامل ما بين عقبة فيق وغزه من البلاد والحصون ، أما الناصر داود فقد عوض عن دمشق بحران والرقه وسروج ورأس عين (٤) .

(١) الحموي : التاريخ المنصوري ، ص ٣٤ - ٣٧ ،

Gabrielle . Arab historians of the Crusade, P 280—82.

(٢) العيني : عقد الجمان ، حوادث عام ٦٢٦ هـ (مخطوط) .

(٣) عقبة فيق ينحدر منها إلى الغور - غور الأردن - ومنها بشرف على

طبرية وبحيرتها .

ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٨٦ .

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٦٥٢ ،

ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج ٩ ص ٣٧٧ ،

ابن واصل : مفرج الكروب - ج ٤ ص ٢٣١ .

وبعد أن استصحب الكامل ممتلكات الناصر داود وأمن مملكته من جهة بلاد الشام ، أرسل (في أوائل عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) سفاره إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر يخبره فيها بتطورات الموقف الجديد ، وكان على رأس هذه السفاره الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ (١) .

ولم يمكث الأمير فخر الدين ببغداد كثيراً ، وإنما عاد إلى مصر بعد أن أبلغ الرسالة التي كلف بها إلى الخليفة ، حيث كانت تنتظره مهمة دبلوماسية أخرى وهي استكمال المفاوضات التي بدأها قبل سفره إلى بغداد مع الامبراطور فردريك الثاني .

== حران : مدينة عظيمة مشهورة ، قصبة ديار مصر ، على طريق الموصل والشام والروم (ياقوت : البلدان ، ٢٠ ص ٢٣٥) .

الرقه : مدينة مشهورة على الفرات ، بينها وبين حران ثلاثة أيام (ياقوت : البلدان ، ٢٠ ص ٥٩) .

سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مصر (ياقوت : البلدان ، ٣٠ ص ٢١٦) .

رأس عين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة (ياقوت : البلدان ، ٣٠ ص ١٤) .

(١) المقرئى : السلوك ، ١٠ ق ١ ص ٢٣٦ .

الأمير فخر الدين ومحادثات السلام مع فردريك الثاني :

في نهاية عام ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م وصل فردريك الثاني إلى عكا ، وفي صحبته ستجائه فارس من حرسه الخاص (١) ، ليسلم بيت المقدس وفق دعوة الكامل له . غير أن الأحداث في منطقته الشرق كانت قد تغيرت كثيراً بعد وفاة المعظم هبسي وزوال الخطر الذي تعرض له الكامل من جهته ، ولكن في نفس الوقت فإن الكامل لا يستطيع إنكار حق فردريك الثاني في بيت المقدس ، لما تقدم بينهما من إتفاق . وعلى هذا النحو تهيأ الملك الكامل (٢) . وزاد من قلق الكامل وحيرته أنه وقع في صراع مع الناصر داود بن المعظم عيسى ، فخشي الكامل إنقلاب الأمور ، فيستجد الناصر داود بالامبراطور فردريك ضده ، فتفشل خطته الرامية إلى فرض نفوذه على جنوب بلاد الشام ، لذلك إتخذ أسلوباً دبلوماسياً وهو شغل فردريك الثاني في إجراء مفاوضات مطولة حتى يستطيع أثناءها تصفية ممتلكات الناصر داود .

وكان الأمير فخر الدين هو المفاوض الأول والسفير ذا الكلمة والرأي المسموع لدى كل من الكامل محمد وفردريك الثاني . وهكذا بدأ الأمير فخر الدين سلسلة من المفاوضات استغرقت الجزء الباقي من عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٨ م) وبداية عام ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) ، حتى تم توقيع اتفاقية تل المجول السابق الإشارة إليهما ،

(١) ابن الصديم : زبدة الحلب ، ٣٨ ص ٢٠٥ ،

Stevenson : The Crusaders in the East, P 309,

Archer : The Crusades, p 381.

(٢) المقرئ : السلوك ١٣ ق ١ ص ١٢٨ ،

المني : عقد الجمان ، حوادث عام ٦٢٤ هـ (مخطوط) .

وأستطاع الكامل بمقتضاها تصفية ممتلكات الناصر داود ، ومن ثم بدأت المفاوضات تتمر حيناً وتتوقف حيناً آخر ، إلى أن أستطاع فخر الدين أن يصل إلى توقيع إتفاقية يافا في ٢٨ ربيع الأول عام ٥٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) بين الكامل محمد وفرديك الثاني ، وهي تنص على أن يأخذ الامبراطور القدس بشرط أن تظل على ما هي من الخراب ولا يحدد سورها وأن تكون سائر القرى للمسلمين لاحكم فيها للفرنج وأن الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ، ويتولاه قوم من المسلمين وتقوم فيه شعائر الاسلام من الاذان والصلاة وأن تكون القرى التي فيما بين عكا ويافا واللد والقدس بأيدي الفرنج دون ما عداها من قرى القدس ، (١) .

وعلى هذا النحو تحقق السلام بين الكامل محمد سلطان الديار المصرية وبين فرديك الثاني إمبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، واحتفظ الكامل بصداقة فرديك الثاني أعظم أباطرة الغرب وذلك بفضل براعة دبلوماسية

(١) ابن الأثير : الكامل ، ص ٩٥ ، ص ٣٧٨ ،

ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٧ ،

ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٤ ،

ابن المديم : زبدة الحلب ، ص ٢٠٥ .

ويشير المقرئ إلى أن الامبراطور فرديك أعتمر للامير فخر الدين بن الشيخ بأنه لو لا يخاف إنكسار جاهه ما كلف السلطان شيئاً من ذلك ، ماله غرض في القدس ولا غيره ، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج . السلوك ، ص ١٠٠ ق ١

ص ٢٣٠ .

الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ (١)

ومن طريق ما يذكر أن علاقة الامبراطور فردريك الثاني بفخر الدين بن الشيخ لم تنته بتوقيع إتفاقية ياقا أو برجيل فردريك إلى أوروبا ، ولكنها استمرت قائمة بعد عودة فردريك إلى أوروبا ، واستمرت المراسلات والمكاتبات بين الرجلين قائمة ، ويشير المقرئ (٢) إلى أنه في عام ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) ورد رسول ملك الفرنج - فردريك الثاني - بكتابه إلى الملك الكامل بجران ، ومعه أيضاً كتاب الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ .

(١) Stevenson : The Crusaders in the East, P 313.

(٢) السلوك ، ١٢ ق ١ ص ٢٣٧ .

معارك الامير فخر الدين :

معاركه في جزيرة العرب :

لم يقتصر الدور الذي لعبه الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على المهام السياسية والدبلوماسية فقط ، وانما تعداها إلى المهام الحربية أيضا حيث تقلد في بعض الفترات وظيفة مقدم المساكر .

وقد اشترك الامير فخر الدين في أكثر من جبهة قتال ، وأحرز انتصارات كبيرة مثله في ذلك مثل بقية ميادين السياحة ، التي شارك فيها .

ومن ميادين القتال التي شارك فيها فخر الدين ميدان جزيرة العرب ، حيث أوفده الملك الكامل محمد على رأس جيش عام ٦٢٩ هـ (١٢٢١ م) إلى مكة لمساندة أميرها « طغتكين » بعد أن طمع في الاستيلاء عليها نور الدين بن علي بن رسول أول ملوك الدولة الرسولية باليمن^(١) بمساعدة راجع بن قتاده^(٢) .

ومكث الامير فخر الدين ببلاد الحجاز متنقلا بين مكة وينبع حتى شهر شوال عام ٦٣٠ هـ (١٢٢٢ م) عندما رحل عن مكة راجع بن قتاده والمسكر اليمني ، واستقر بها حكم الملك الكامل محمد^(٣) .

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمان في أخبار القطر اليمني ، ص ٤١٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعيان ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٣) ابن أبيك : الدر المطلب ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

معاركة ضد الخوارزمية :

شكلت الخوارزمية خطراً كبيراً على سلطنة الصالح أيوب ، فبعد أن كان يعتمد عليهم في معاركه اعتماداً كبيراً^(١) ، اذ به يفقد ثقته فيهم منذ غدرهم به عام ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) وتركه يقع أسيراً في يد الملك الناصر داود حيث حبس بحصن الكرك دون أن يحاولوا القتال في جانبه أو العمل على فك أسره^(٢) . وبعد أن قدر للصالح أيوب أن يلي حكم الديار المصرية أخذ يتتبع تحركات الخوارزمية خفية تكوين جبهة مضادة ضده ، خاصة بعد أن ازداد غضبهم نتيجة ما حدث عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) عند ما خرج معين الدين بن شيخ الشيوخ الى بلاد الشام لمحاربة الصالح اسماعيل ومن حالفه من الأمراء الخارجين عن طاعة الصالح أيوب ، وأثناء تلك الحرب قدم الخوارزمية مساعدات كبيرة لمعين الدين بن شيخ الشيوخ ، وانتظر الخوارزمية مقابلاً لخدماتهم ، غير أن معين الدين لم يحفظ للخوارزمية مساندة لهم ولم يمنحهم أيأ من بلاد الشام ، فنقرت نياتهم وفسدت ، واتفقت كلمتهم على الخروج عليه^(٣) .

المقريزي : الخطط ، ٢٠ ص ٣٢ - ٣٣ ،

علي بن حسين : الملاقات الحجازية المصرية ، ص ٢٥

(١) المقريزي : السلوك ١٠ ق ١ ص ٢٥٥ .

(٢) عن أحداث هذه الفترة وأمر الصالح أيوب وسجنه بالكرك انظر :

المقريزي : السلوك ١٠ ص ٢٨٤ - ٢٨٨ ،

أبو المحاسن : النجوم ج ٦ ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٥ ص ٣٥٠ ،

وعن هذا الموضوع انظر :

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ٢٠ ص ١٠٤٢ - ١٠٥٠

وإزاء هذا الوضع لم يتردد الخوارزمية في الاتفاق مع الناصر داود - الذي كان معادياً للصالح أيوب - عام ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) الذي تزوج منهم واختلط بهم وقويت شوكتهم بإتيانهم إليه وأطمعته نفسه بالبلاد (١) . ولم يلبث أن خرج الناصر داود من الكرك وبصحبة الخوارزمية واتجهوا إلى البلقاء (٢) - وكانت من ممتلكات الصالح أيوب - للاستيلاء عليها .

وعندما علم الصالح أيوب بكل هذه التطورات انزعج انزعاجاً شديداً ، وجهز على الفور جيشاً كبيراً لتأديب الخوارزمية والناصر داود ، وعهد بقيادة هذا الجيش إلى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ .

وإتجه الأمير فخر الدين على رأس هذا الجيش الكبير إلى غزة ومنها إلى الصلح حيث تقابل مع الناصر داود والخوارزمية وأنزل بهم الهزيمة في ١٧ ربيع الآخر عام ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) وفر الناصر داود والخوارزمية إلى الكرك (٣) . في حين استولى فخر الدين على البلقاء ، ثم تابع سيره إلى الكرك حيث ضرب عليها الحصار (٤) .

(١) ابن الصميد : أخبار الأيوبيين ص ١٥٧ ،

(٢) البلقاء كوره من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى .

ياقوت : معجم البلدان ، ج ١٥ ، ص ٤٨٩ .

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٦١ ،

(٤) ابن أبيك : الدر المطلوب ، ص ٣٨٩ .

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

وبعد أن اشتد الحصار على الناصر داود، أرسل إلى فخر الدين يستعطفه ويطلب منه رفع الحصار عن الكرك، فاشترط فخر الدين لرفع الحصار عن الكرك أن يسلم الناصر داود إليه كل من عنده من الخوارزمية، واضطر الناصر داود أن يوافق على هذا الشرط، وأخرج إلى فخر الدين كل من عنده من الخوارزمية فتسلمهم فخر الدين (١).

ولما كان فخر الدين يتمتع بقسط وافر من المهارة السياسية والدبلوماسية، فإنه لم ينزل أي ضرر أو عقاب بالخوارزمية وإنما عمل على استمالتهم إليه وأحسن إليهم ودخل عليهم وطيب قلوبهم واستصحبهم صحبته، وكسبهم إلى جانبه (٢).

مخاربة الأمير فخر الدين للأمراء الخارجين عن السلطنة الأيوبية:

وقف كثير من أمراء البيت الأيوبي بالشام موقفا معاديا من مركز السلطنة الأيوبية بالديار المصرية، ومن أولئك الأمراء كان الناصر داود بن المعظم عيسى الذي استمر يمثل شوكة في ظهر سلاطين الدولة الأيوبية، منذ أن انتزع منه الكامل محمد دمشق، وأخذ الناصر داود يتحين الفرص للإنقضاض على دمشق والإستيلاء عليها، من ذلك مثلا أنه انتهب فرصة الاضطرابات التي حدثت بسبب

(١) ابن أيبك: الدر المطلب، ص ٣٥٩.

ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٥٧.

(٢) ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ١٥٧.

المقريزي: الخطط، ص ٢٢ - ٢٣.

الخلافت الناشبه بين الكامل والصالح اسماعيل ، فخرج بمبشبه واتجه صوب دمشق وفرض عليها الحصار عام ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) . فلم يكن من الكامل محمد الا أن أرسل الأمير فخر الدين على رأس جيش كبير لانقاذ مدينة دمشق من السقوط في يد الناصر داود ، وما أن اقترب فخر الدين من دمشق حتى رفع عنها الناصر داود الحصار وفر هارباً لعدم استطاعته الصمود في وجه فخر الدين بن شيخ الشيوخ (١) .

ولا يعني فرار الناصر داود القضاء عليه أو اضعاف قوته ، وإنما استمر يقاتل بالسلطنة الأيوبية . وأخيراً عزم الصالح نجم الدين أيوب على القضاء على قوة الناصر داود نهائياً ، فسير الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ عام ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) على رأس جيش كثيف إلى أملاك الناصر داود ، وحاصر فخر الدين الكرك وخرّب ضياعها . ويبدو أن الحملة التي قادها فخر الدين هذه المرة كانت من القوة بحيث حطمت قوة الناصر داود ، وقلعت أظافره ، واستولى فخر الدين أثناءها على معظم أملاك الناصر ولم يترك له سوى الكرك ، وضمف الملك الناصر ضمفاً بالغاء (٢) . وبذلك نجح الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ في الحد من نفوذ وسلطة الناصر داود الذي كان يمثل شوكة في ظهر السلطنة الأيوبية .

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٨٠ ص ٧٠٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، ص ٥٠ ص ٣٦٤ ،

أبو الفدا : المختصر ، ص ١٧٥ ،

أبو المحاسن : النجوم ، ص ٦٠ ص ٣٢٦ .

ولم يكن الناصر داود هو الطامع الوحيد في الاستيلاء على دمشق وإنما كان الملك الناصر الثاني صلاح الدين يوسف صاحب حلب (١٢٤٤ - ١٢٥٨/١٢٢٦ - ١٢٦٠ م) هو الآخر من الأمراء الطامعين في الاستيلاء على دمشق من يد الصالح نجم الدين أيوب ، فقد اتجه بجيوشه إليها عام ٥٦٤٦ (١٢٤٨ م) بمادفع الصالح أيوب إلى أن يأمر قائده الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بالاسراع لتجدة دمشق ، حيث أخذ في ترتيب أمورهما مع كلا من شهاب الدين رشيد الذي عهد إليه الصالح أيوب بتدبير شئون دمشق ، وجمال الدين يحيى بن مطروح وزير دمشق و « أنعم عليهم واعطاهم النفقات والخلع » (١) ،

وفي نفس العام (٥٦٤٦ / ١٢٤٨ م) خرج فخر الدين على رأس جيوشه لمنازلة حصص التي كانت بيد الناصر صلاح الدين ، وذلك انتقاماً منه لتمديد المستنصر لمدينة دمشق ، وفرض عليها الحصار ، وأخذت المجانيق تقذف حصص بأحجار حلت من دمشق يصل زنة الواحد منها « مائة وأربعون رطلاً » ، واستمر الحصار مفروضاً على حصص حتى توسط الخليفة المباشي أبو أحمد عبدالله المستنصر بالله بن المستنصر (٦٤٠ - ٥٦٥٦ / ١٢٤٢ - ١٢٥٨ م) في الصلح ، فرفع فخر الدين يده عن حصص « بعدما أشرف على أخذها » (٢)

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٨ ،

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٨٠ ، ص ٧٧٠ ،

ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٨ ،

ابن خلدون : المعبر ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ ،

المقريزي : السلوك ، ص ٢٣١ ،

معاربة الأمير فخر الدين للصليبيين :

لم تقتصر جهود الأمير فخر الدين الحربية عند هذا الحد ، وإنما تمدتها إلى قتال الصليبيين . من ذلك مثلا ما حدث عام ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م) عندما عهد إليه السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالإستيلاء على كل من عسقلان وطبرية ، وبدأ فخر الدين بطبرية حيث فرض عليها الحصار ، واستولى عليها بالقوة من يد الصليبيين (١) . و د هدم ما استجدده بها الفرج من القلاع ، (٢) ثم إجهه بعد ذلك صوب عسقلان واستولى عليها بالقوة أيضا (٣) وسلمها إلى نواب الملك الصالح أيوب . (٤)

أما الدور الحاسم الذي لعبه الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ في قتال الصليبيين فكان في عام ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ / ١٢٥٠ م) بعد وصول الحملة الصليبية السابعة إلى مصر .

وكان للعلاقات الودية التي ربطت الامبراطور فردريك الثاني بالسلطان الكامل محمد ثم ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تلك العلاقات الودية التي كان الأمير فخر الدين يوسف عاملا أساسياً في قيامها ، كان لها أثر حميد في تلك المعارك التي شنتها البابوية

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٨٦٦ ،

أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ص ١٧٦ ،

أبو المحاسن : النجوم - ج ٦ ص ٣٥٨ .

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٢٧ .

(٣) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٨ ،

ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ج ٨ ص ٧٦٦ .

على بلاد الشرق الإسلامي خاصة مصر قلب العالم الإسلامي . فقد أنهى الامبراطور فردريك الثاني إلى علم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أخبار تلك الحملة الصليبية التي أعتها البابوية وتقرر أن يخرج على رأسها ملك فرنسا لويس التاسع ، بقصد الإستيلاء على مصر (١) وبعد أن علم الصالح أيوب بتطورات الموقف في أوروبا وقرب وصول الحملة الصليبية إلى مصر ، اتخذ من الترتيبات العسكرية ما يضمن به عدم سقوط دمياط — التي كانت مقصد الصليبيين — في يد الصليبيين .

وتفصيل ذلك أنه عقب وصول رسالة الامبراطور فردريك الثاني إلى الملك الصالح — وكان حينئذ ببلاد الشام — يحذره فيها من وصول الحملة الصليبية إلى دمياط ، أمر الملك الصالح قائده نجر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالإسراع والذهاب إلى دمياط وشحنها بالجنود والسلاح (٢) ، ليصير في مقابلة الفرنج إذا قدموا ، (٣) . وفي نفس الوقت أمر بني كنانة (٤) المشهورين بالشجاعة والبسالة في الحروب (٥) أمرهم بالبقاء بدمياط للدفاع عنها إلى جانب الحامية العسكرية

(١) ابن أيوب : الدر المطلوب ، ص ٣٦٦ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٣٣٣ .

(٤) بنو كنانة من مشاهير العرب المستعربة ، وكنانته بن خزيمه بن مدركه

ابن الياس . وقد قطن أفراد هذه القبيلة بدمياط وما حولها .

انظر : القلقشندي : قلائد الجمان في التعريف بقبايل عرب الزمان ص ١٢٣ — ١٢٥

(٥) أبو الفدا : المختصر ، ص ١٧٨ .

والجيش (١). أما السلطان الصالح أيوب فقد اتجه إلى أشموم طنح ليرقب الموقف (٢).
 وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الجمعة (تسع بقين من شهر صفر عام ٦٤٧هـ)
 وصلت مراكب الفرنج البحرية صحبة ريدافرنس - لويس التاسع ملك فرنسا -
 إلى دمياط، وفي اليوم التالي نزلوا إلى البر الذي عساكر المسلمين فيه، وهو
 البر الغربي (٣). وفي نفس الليلة رحل الأمير فخر الدين يوسف بن معه من عساكر
 المسلمين من البر الغربي إلى البر الشرقي واتجه صوب أشموم طنح، وعندما رأى
 أهل دمياط رحيل الجيش صحبة الأمير فخر الدين تركوا المدينة وخرجوا في نفس
 الليلة هائمين على وجوههم وهم حفاة عراة خياع فقراء حيارى بن معهم من الأطفال
 والنساء وساروا إلى القاهرة، ولم يبق بالمدينة أحد البتة، وصارت دمياط
 فارغة من الناس جملة (٤)، كما أن بنى كنانة الذين اعتمد على شجاعتهم الصالح نجم
 الدين أيوب، تركوا دمياط مثلهم في ذلك مثل الجيش والحامية وأهل دمياط.
 وفي الصباح - التاسع من صفر - وجد الصليبيون دمياط خالية تماماً من حراسها
 وأهلها فدخلوا المدينة بلا كلفة ولا مؤنة حصار (٥).

(١) ابن خلدون : العبر ، ص ٣٥٩ .

(٢) المقرئزي : السلوك ، ص ٢٢٣ .

(٣) المقرئزي : المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

Stevenson : The crusaders in the East, p 325

(٤) ابن خلدون : وفيات الأعيان ، ص ٥٧٦ .

المقرئزي : السلوك ، ص ٢٣٥ .

Gottschalk : Awlad el Shaykh, p 766 .

(٥) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٨ .

ولم يسلم الأمير فخر الدين من نقد ولوم الصالح نجم الدين أيوب ، الذي تغير قلبه على الأمير فخر الدين ، وغضب غضباً كبيراً على تصرف فخر الدين بمصادرة دمياط وإخلائها من السكان ، وقال له : « أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج^(١) . وقد خشى كثير من الامراء غضب الصالح أيوب ، وهمسوا للأمير فخر الدين بتخوفهم من غدر السلطان بهم وقتلهم ، وأشاروا عليه بالتخلص منه قبل أن يقدم على قتلهم ، فأشار عليهم الأمير فخر الدين بالتريث والصبر » حتى يتبين أمر السلطان فإنه على خطئه — أي مريض مرض الموت — وإن مات كانت الراحة منه وإلا فهو بين أيديكم ،^(٢) .

= ابن أيبك : الدر المطلب ، ص ٣٦٩ ،

Stevenson : op. cit, P 327 .

(١) ويبدو أن الأمير فخر الدين قد أخطأ في هذا التصرف ، لأن دمياط كان من الممكن أن تصمد في وجه الصليبيين خاصة بعد أن شحنها الصالح أيوب بالسلاح والعتاد بالإضافة إلى وجود بني كنانة الذين اشتهروا بالشجاعة والافدام .

أنظر : ابن أيبك : الدر المطلب ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ، ١ - ٢ في ص ٢٣٦ .

لم يسلم الأمير فخر الدين من نقد المؤرخين له هلى ترك دمياط تقع فريسة سهلة في يد الصليبيين ، فقال عنه ابن أيبك « إن رأى الأمير فخر الدين كان رأيا ذميا ، فلو أقاموا مع مشيئة الله عز وجل في دمياط ما قدر عليها الفرنج ، الدر المطلب ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠ . أما المقرئى فقال « عدت هذه الغفلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به ، السلوك ، ١ - ٢ في ص ٣٣٥ : أما أبو المحاسن فيرى أن ما حدث « كان من قبيح رأى فخر الدين « النجوم ، ٦ - ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

أما أمراء بني كنانة فقد لقوا جميعهم مصرعهم ، حيث أمر الصالح أيوب بصلبهم جميعاً ، وكانوا نيفا وخمسين أميراً ، حتى يسكنوا عبره لسكن من تحدته نفسه بالخيابة وعدم الصمود في وجه الأعداء . (١) .

ولم يلبث الصالح أيوب أن أصدر أوامره بعد أن إستولى الصليبيون على دمياط باتخاذ المنصورة خط دفاع أول ، وأن يعسكر بها الجند في مواجهة الصليبيين المسكرين بدمياط . (٢) .

ولم تفض أيام قليلة إلا وتوفي الملك الصالح نجم الدين أيوب بالمنصورة في ١٠ شعبان عام ٦٤٧هـ (١٢٤٩م) فتولى الأمير فخر الدين تدبير السلطنة ، وقيادة الجيش المصرى المرابض بالمنصورة ، وتحمل عبء مقاومة حملة لويس التاسع المرابض بدمياط . (٣) .

استشهاد الامير فخر الدين اثناء الجهاد ضد الصليبيين:

وما أن علم لويس التاسع بخبر وفاة الملك الصالح أيوب ، حتى أخذ يفكر جدياً

(١) ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٥٨ ،

ابن ابيك : الدر المطلب ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

ابو المحاسن . النجوم ، ج ٦ ص ٣٢٩ - ٣٢٠ .

(٢) أبو الفدا . المختصر ، ج ٣ ص ١٧٨ - ١٧٩ ،

المقرئى . السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٢٣٧ ،

أبو المحاسن . النجوم ، ج ٦ ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٣) ابن العبرى . تاريخ مختصر الدول ، ٢٥٨ .

في مهاجمة المعسكر الإسلامي ، ويشير ابن خلدون (١) إلى أن الصليبيين مجرد أن علموا نبأ وفاة الصالح أيوب ، شرعوا إلى قتال المسلمين .

وكان المسلمون قد أحكموا سيطرتهم على كل منافذ مدينة دمياط حتى لا يمكنوا الجيش الصليبي من التقدم ناحية المنصورة ، لذلك فشلت كل المحاولات التي بذلها لويس التاسع في الوصول إلى المنصورة . غير أن أحد البدو دلم على مخاضه في بحر أشموم طنح توصلهم إلى المنصورة دون أن يشعر بهم الجيش الإسلامي في مقابل قدر من المال (٢) .

وفي يوم الثلاثاء الخامس من ذي القعدة عام ٥٦٤٧ (٨ فبراير عام ١٢٥٠ م) بدأ كونت آرتو Coët of Artois قائد فرقة الداوية وشقيق لويس التاسع الزحف إلى المنصورة عن طريق المخاضة التي أشار بها البدوي ، دون أن يشعر بهم المسلمون (٣) ، مجرد وصول الصليبيين إلى المنصورة بدأوا الهجوم على المعسكر الإسلامي ، مما أحدث اضطراباً شديداً في صفوف المسلمين . وكان الأمير فخر الدين في ذلك الوقت في الحمام ، وسمع صراخ الجند المسلمين فخرج على الفور

(١) العبر ، ج ٥ ص ٣٥٩ .

(٢) يشير جوانفيل في حوارياته إلى أنه تقدم لورد أمبرت إلى الملك مملنا إليه أن أحد البدو جاءه مخبراً إياه بأن في استطاعته أن يدلنا على مخاضه صالحه ، وأشار علينا أن ننقله خمسمائة بيزانت . فوافق الملك على نقده ما طلب على أن يبرهن من جانبه على صدق عهده . (ص ١١٣) .

(٣) سبط بن الجوزي . مرآة الزمان . ص ٧٧٦ ، ٧٧٧ .

ابن العميد . اخبار الأيوبيين . ص ١٥٩ ،

جوليات جوانفيل ص ١١٣ .

وامتطى جواده دون أن يرتدى كافة ملبسه الحربية ، ووساق لينظر الخبر ويأمر
الناس بالركوب ، ، ولم يكن بصحبة القائد فخر الدين وسوى بعض عماليكه
وجنده (١) . وأثناء سير فخر الدين قابله مجموعة من الصليبيين فتعرفوا عليه عن
طريق شارة الفروسية المعلقة على كتفه والتي سبق أن منحها له الامبراطور فردريك
الثاني ، فتوقفوا لمقاتلته (٢) ، فلم يكن من الماء اليك والجنود المصاحبين لفخر الدين
إلا أن تركوه وحيدا وفروا تاركيه يدافع عن نفسه وحيدا في مهارة وبساله ، وأخيرا
استطاع أحد الداوية أن يطعمه برمح في جنبه ثم هجم عليه بقية الفرسان الصليبيين
بسيوفهم ، فقتل في ساعته ، (الثلاثاء الخامس من ذى القعدة عام ٤٧٠ هـ / ١٢٥٠ م) (٣)
وهو آخر اخوته موتا (٤) .

(١) ابن ابيك : الدر المطلب ، ص ٢٧٦ ،

أبو الفدا : المختصر ، ص ٣٠٠ ،

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٣٤٩ .

(٢) حوليات جوانقيل ص ١٠٨ . جروب معين التاريخ لأهل التاريخ

(٣) ابن العميد : اخبار الأيوبيين ، ص ١٥٩ ،

ابن ابيك : الدر المطلب ، ص ٢٧٦ ،

السبكي : طبقات الشافعية ، ص ١٥٣ ،

المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٣٤٩ ،

العماد الدين الحنبلي : شذرات الذهب ، ص ٣٢٨ - ٢٣٩ ،

Gottschalk : Awlad ol Shaykh, p. 766.

(٤) أبو شامة : الذيل ص ١٨٤ .

ومن العجيب أن عماليكة الذين تركوه وحيداً أمام الصليبيين وفروا هاربين مجرد أن علموا بقتله ، سارعوا إلى داره ففكسروا صناديقه ونهبوا أكثر ما فيها ، ونهبوا أمواله ونحله حتى أبواب داره لم تسلم من السرقة (١) .

وعلى رأى سبط بن الجوزي (٢) — وكان معاصراً لهذه الأحداث — لم ينفع فخر الدين « تربية عماليكة وإحسانه إليهم » ،

وهكذا خربت دار الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ خربها امرأته وعماليكة أولئك الذين « كانوا يتمنون أن ينظر إلى أحدهم نظره » (٣) .

وهكذا أنكر أمراء وعماليك فخر الدين جميل وفضل أستاذهم عليهم ، وفعل مثلهم المظالم تورانشاه بن الملك الصالح أيوب بعد وصوله إلى الديار المصرية ، حيث أخذ عماليك فخر الدين الصغار وبعض أمتته بنصف قيمتها ، وأساء كثيراً إليه ، فقلب حسنة سيئات فكان يقول عليه : « أطلق — أي فخر الدين — الكنان والسكر وانفق الأموال وأطلق المحاييس فأبش ترك لي أنا » (٤) . وعلى هذا النحو

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٧٦٦—٧٧٧ ،

المقريزي : السلوك ، ١٣ ق ٢ ص ٣٥١ .

(٢) مرآة الزمان ، ٨٣ ص ٧٧٦—٧٧٧

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ٨٣ ص ٧٧٧ ،

السبكي : طبقات الشافعية ، ٥٥ ص ١٥٢ .

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ، ٨٣ ص ٧٧٧ .

المقريزي : السلوك ، ١٣ ق ٢ ص ٣٥٢ .

كان حفظ فخر الدين للملك وتديره للبلاد عقب وفاة الصالح أيوب ، من أكبر ذنوبه ، (١) وهكذا انتهت حياة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ الذي اعترف بفضلته كافة المؤرخين المسلمين وغير المسلمين (٢) .

• • •

وبوفاة الأمير فخر الدين يوسف ، انتهى دور أسرة شيخ الشيوخ في مضمار الحرب والسياسة والعلم والمعرفة في العصر الأيوبي .

-
- (١) سبط بن الجوزي : المصدر السابق ، ج ٨ ص ٧٧٧ .
(٢) من العبارات التي تكررت في مدح فخر الدين انه كان « عاقلا جواداً مديراً خليقاً بالملك محبوباً إلى الناس » .
أنظر سبط بن الجوزي . مرآة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٧٠٧ .
السبكي . طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ١٥٢ - ١٥٣ ،
المقريزي : السلوك ، ج ١ ق ٢ ص ٣٥٣ .
أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٣٦٣ .
وقال عنه جوائقي في حوالياته ، انه كان اعظم المسلمين مكانة ، (ص ١٠٨) .

المصادر والمراجع العربية

- ابن أبي اليهجا : (عصر صلاح الدين الأيوبي)
تاريخه
مخطوط بمعهد المخطوطات العربية رقم ٩٤٥
- ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ)
الكامل في التاريخ
المطبعة التجارية
- ابن أيبك : (ت ٧٦٩ هـ)
الدر المطلوب في ملوك بني أيوب
القاهرة ١٩٧٢ م
- ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ)
العير وديوان المبتدأ والخبر
القاهرة ١٩٧٦ م
- ابن خلدكان : (ت ٦٨١ هـ)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
القاهرة ١٣١٠ هـ
- ابن سميد الأندلسي : (٦٨٥ هـ)
المغرب في حلي المغرب
القاهرة ١٩٥٣ م
- ابن طباطبا : (ت ٧٠٩ هـ)
محمد بن علي

الفخرى في الآداب السلطانية

القاهرة ١٩٢٧ م

— ابن العبرى : (ت ٦٨٥ هـ) أبو الفرج بن هرون الملقب
تاريخ مختصر الدول

بيروت ١٨٩٠ م

— ابن العديم : (ت ٦٦٠ هـ) كمال الدين أبو القاسم عمر
زبدة الحلب في تاريخ حلب

دمشق ١٩٥٤—١٩٥٨

— ابن العميد : (ت ٦٧٢ هـ) الشيخ جريس بن العميد
أخبار الأيوبيين

Bulletin d' etudes orientales, Tom xv, 1955—57 .

— ابن الفرات : (ت ٨٠٧ هـ) محمد عبد الرحيم
تاريخ الأمم والملوك

مخطوط بدار الكتاب المصرية رقم ٣١٩٧ تاريخ

— ابن واصل : (ت ٦٩٧ هـ) جمال الدين محمد بن سالم
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب

القاهرة ١٩٥٣—١٩٧٨

— ابن الوردي : (ت ٧٤٩ هـ) عمر بن الوردي

تاريخ ابن الوردي المعروف بتممة المختصر

بيروت ١٩٧٠

— أبو شامة : (ت ٦٦٥ هـ) شهاب بن محمد

تواجم رجال القرنين السادس والسابع
المعروف بالذيل على الروضتين

القاهرة ١٩٤٧

— أبو الفدا : (ت ٧٣٢ هـ) عماد الدين اسماعيل
المختصر في أخبار البشر

القاهرة ١٣٢٥ هـ

— أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
النجوم الزاهرة في محاسن ملوك مصر والقاهرة
طبعة دار الكتب المصرية .

: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي
القاهرة ١٩٥٦ م

— جمال الدين الشيبان .

في التاريخ

: مقال في كتاب أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية
القاهرة ١٩٧٠

— جوانقيل :

: القديس لويس

القاهرة ١٩٦٨

: (ت ١٠٨٩) عبد الحى بن احمد بن العماد
شذرات الذهب في أخبار من ذهب

— الحنبلى

القاهرة ١٣٠٠ هـ

: أبو الفضائل محمد على

— الحموى

تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان

أو التاريخ المنصورى

مخطوط منشور بالتصوير موسكو ١٩٦٠

— زامباور

معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي

القاهرة ١٩٥٠

— الزبيدي

(ت ١٢٠٥ هـ) المرتضى

ترويح القلوب في ذكر الملوك بني ايوب

دمشق ١٩٧١

— زيان

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية بمصر زمن صلاح الدين الايوبي

مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة عدد ٣١

القاهرة ١٩٧٥

الازمات الاقتصادية والادوية في مصر عصر سلاطين

المماليك القاهرة ١٩٧٦

— سبط بن الجوزي : (ت ٦٥٤ هـ) يوسف بن قزاوغلي

مرآة الزمان في تاريخ الاعيان

حيدر آباد ١٨٥١

— سبط بن المعجمي : (ت ٨٨٤ هـ) موفق الدين أبي ذر أحمد

كنوز الذهب في تاريخ حلب

مخطوط بدار الكتب رقم ٨٣٧ تاريخ

— السبكي : (ت ٧٧١ هـ) تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب

طبقات الشافعية الكبرى

القاهرة ١٣٢٤ هـ

- سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام القاهرة ١٩٦٥
- السيوطي : (ت ٥٩١١هـ) جلال الدين عبد الرحمن
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة دمشق ١٩٣٢
- الصفوي (ت ٥٧٦٤هـ) صلاح الدين خليل بن أيبك
الروافى بالوفيات دمشق ١٩٥٩
- علي بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية
القاهرة ١٩٧١ (ت ٥٨٥٥هـ) بدر الدين محمود
عقد الجمال في تاريخ أهل الزمان
- مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٨٤ تاريخ
- القلقشندي : (ت ٥٨٣١هـ) أبي العباس أحمد
صبح الأدهنى في صناعة الإنشاء طبعة دار المكتب
- محمد رمزي : القاموس الجغرافي القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٦٣
- المقرئزي : (ت ٥٨٤٥هـ) تقي الدين أحمد بن علي
السلوك لمعرفة دول الملوك القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٧٤
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
بولاغ ١٢٧٠هـ
- النابلسي : (ت ٥٦٦٠هـ) عثمان بن إبراهيم
كتاب لمع القوانين المضية
- Bulletin d' études Orientales, Vol XVI, 1958-60
- النعيمي : (ت ٥٩٢٧هـ) عبد القادر بن محمد

الدارس في تاريخ المدارس

دمشق ١٩٤٨

— التويرى : (ت ٥٧٣٣) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
نهاية الأرب في فنون الأدب

مخطوط بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة

— ياقوت : (ت ٥٦٢٦) شهاب الدين أبي عبدالله الحموي
معجم البلدان

بيروت ١٩٦٨

— يحيى بن الحسين (ت ٥١١٠)
غاية الأمان في أخبار القطر اليماني

القاهرة ١٩٦٨

المراجع الاجنبية

- Alfred Duggan :
The Story of the Crusades . London, 1963.
- Archer : (T. A.) :
The Crusades. London, 1946
- Gabrielle (F.) :
Arab Historians of the Crusades
London, 1967.
- Gottschalk (H. L.)
Awlad el Shaykh.
(Encyclopaedia of Islam, Vol 1, pp. 765—766, 2nd edition)
- Grousset (R.) :
Histoire des Croisades et du Royaume
France de Jerusalem. Paris, 1934.
- Kantorwicz (Z) :
Frederick the Second . London 1931.
- Lane — pool (S.) :
A history of Egypt in the middle ages London, 1914
- Stevenson (W.B) ,
The Crusaders in the East, new impression
Beirut 1968
- Tout (T.F.) :
The Empire and the papacy, London, 1899

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة
٩	اصل اسره شيخ الشيوخ
٢١	عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ
٣١	كمال الدين احمد بن شيخ الشيوخ
٣٦	معين الدين - بن شيخ الشيوخ
٤٦	فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ
٤٦	حياته ..
٥٤	الامير فخر الدين مدير الساطنه
٦٦	دبلوماسية الامير فخر الدين
٦٦	سفارة الامير فخر الدين إلى أوروبا
٦٩	سفارة الامير فخر الدين إلى الخليفة العباس عام ٦٢٦ هـ
٧١	الامير فخر الدين ومحادثات السلام مع فردريك الثاني
٧٤	معارك الامير فخر الدين
٧٤	معاركه في جزيرة العرب

٧٥	معاركه ضد الخوارزميه
	معاربه الامير فخر الدين للأمراء الخارجين عن السلطنة
٧٧	الايوبيه
٨٠	معاربه الامير فخر الدين للصليبيين
٨٤	استشهاد الامير فخر الدين
٨٩	المصادر والمراجع

سجده الباحث عماد أمير
ونسقه وفهرسه
جروب معين التاريخ للأهل التاريخ

رقم الايداع بدار الكتب

٤٧٢٢ / ١٩٧٨ م

الترقيم الدولي

٨ - ٦٧ - ٧٢٥٧ - ٩٧٧

مطبعة دار نشر الثقافة
٢١ شارع كامل صدقي بالفجالة
ت ٩١٦٠٧٦

